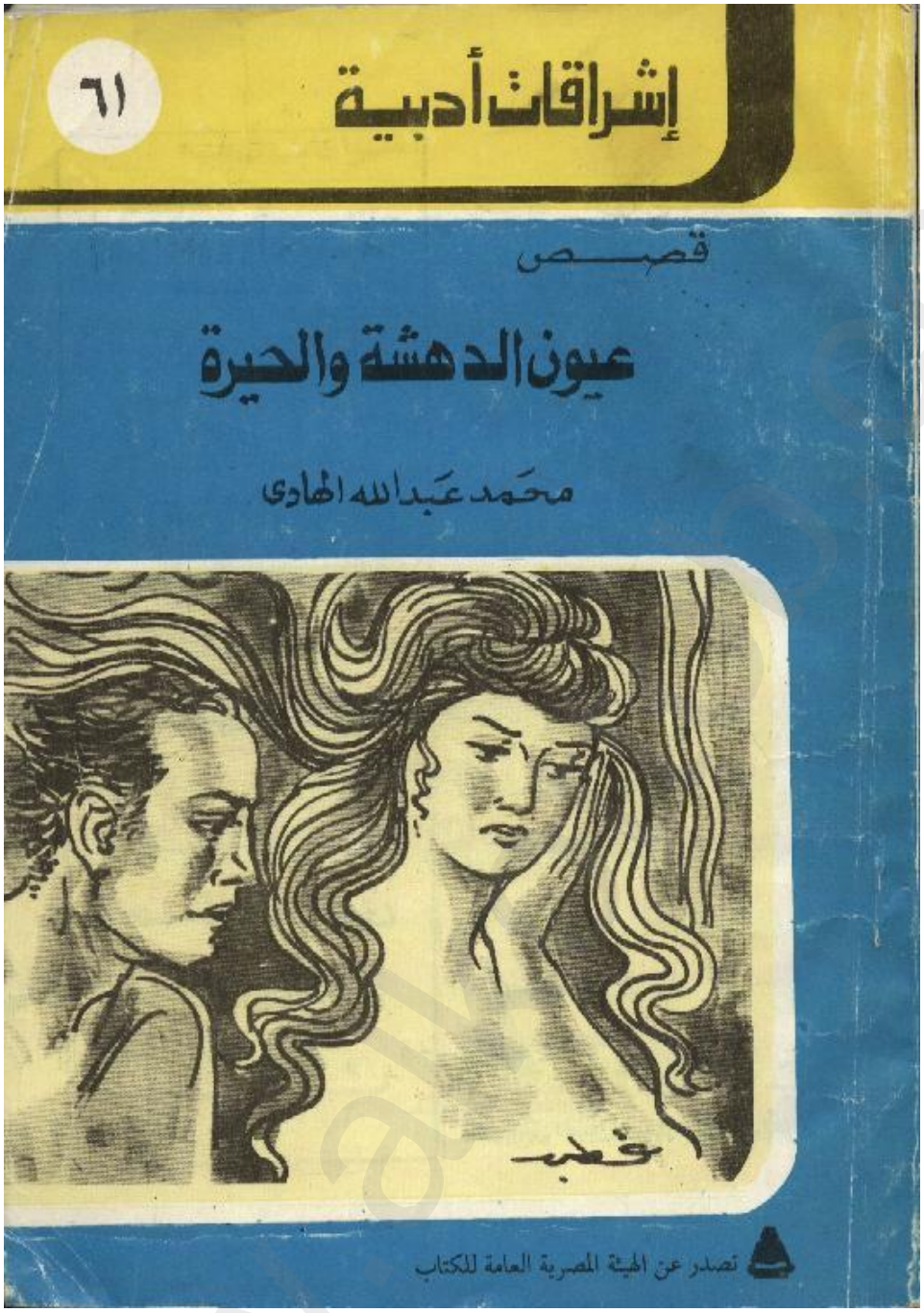

إشراقات أدبية ٦١

قصص

عيون الدهشة والحيرة

محمد عبدالله الهادى

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

إشراقات أدبية
(نصف شهرية)

رئيس مجلس الإدارة
سمير سرحان

رئيس التحرير
محمود العزب

مدير التحرير
أحمد الحوتي

الإخراج الفني
محمد قطب

15 ديسمبر 1989
تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب
كورنيش النيل ـ رملة بولاق ـ القاهرة

إشراقات أدبية (61)
قصص قصيرة
محمد عبد الله الهادي

إهـداء

إلي أمي رحمها الله
وكنت قد نظرت عينيها الغائمتين بقيد الدمع قبل الرحيل :
ـ لماذا أنت حزينة يا أمي ؟
قالت :
ـ سأتركك يا صغيري وحيداً .. سمكة في عرض البحر .

محمد عبد الله الهادي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

بهروا الدنيا
وما في يدهم إلاَّ الحجارة
وأضاءوا كالقناديل ، وجاءوا كالبشارة ..
(نزار قباني)

كانت زوجتي تحل شعرها أمام المرآة وهي تتزين ، تطوحه علي كتفيها العاريتين ، بدت في عيني كمهرة صغيرة شقية ترنو إلي فارسها ، ضوء " الأباجورة " الوردي يفرش ظلاً خفيفاً علي السقف والحوائط المصقولة ، كان الليل غريباً هذا المساء ، يختبئ خلف النافذة ، أعرف أنه بعيد الغور ، موحش وحزين ، أخاف ظلمته أن تلفني في عباءتها وتلقي بي في غياهب جب سحيق .
زوجتي مشاكسة لكنها ودودة ، قفزت جانبي علي الفراش ، سحبت السيجارة من بين شفتيّ بأصابعها ، سحقت رأسها المتأجج في قاع المنفضة الخزفية ، لم أتحرك عندما مالت برأسها علي صدري برفق ، شممت عطرها وأنفاسها الملتهبة لمَّا أدارت بأصابعها وجهي ناحيتها ، كانت ذراعاي متقاطعتين تحت رأسي كإشارة تحذير غُرستْ قبالة مزلقان خطر ، كان رأسي محموماً ، المستوطنون اليهود من جماعة " جوش أمونيم " يقتحمون مخيم " طولكرم " ، يطلقون الرصاص في كل اتجاه بعشوائية مقصودة ، سقط شاب لم يتجاوز العشرين ، أصيب العشرات بجراح خطيرة ، ولولت أم عجوز ورفعت يديها علي غطاء رأسها الأبيض ، رنا رجل أشيب ببصره ، بدا ظهره المقوس مثقلاً بحمولة أعوام من الاحتلال . لم أتحرك ، كانت زوجتي ساخنة ، تأودت ، تنهدت من جوف الصدر ، أحاطتني بذراعيها ، حدقت في عيني بسخرية طفولية . كان أطفال المخيم قد قذفوا عربات الجنود بالحجارة فحطموا زجاجها ، وأشعلوا النار في الإطارات . سقطت ألواح من زجاج ثلجي بارد بيني وبين زوجتي ، صارت حوائط من الأسمنت والصلب ، خبطت كتفي بقبضة يدها بحنو ، وتصنعت الغضب لمَّا زمَّت شفتيها وعينيها وابتعدت قليلاً ، بدا غضبها جميلاً . رغم أني أمقت الصلح المنفرد مع الصهاينة ، وأؤيد المؤتمر الدولي ، صرت أتحسس ملابسي وجسدي بعد أي صلح منفرد آخر ، لكن لعبة الحب الغاضب ، والصلح المنفرد ، معها ، كان طقساً محبباً لنفسي ، أمارسه معها في ساعات الصفاء ، ويحلو لها هذا ، لكني لم أتحرك . " جميلة " ، البنت الفلسطينية ، لمَّا عادت لمخيم " شاتيلا " وجدت بيتها مهدماً ، وأباها المقعد مقتولاً بجوار كرسيه المتحرك ، وأمها كانت جثَّة هامدة ، ولمَّا حاولت الرجوع أمسك بها أحد المسلحين ، قادها إلي بيت قريب ، كان هناك أربعة آخرون ، مزقوا رداءها الأبيض ، وتناوبوا الاعتداء عليها . كانت زوجتي قد أدارت ظهرها لي وقالت : " هه " ، وكورت جسدها ، لحمها الأبيض المخنوق في غلالة قميصها الضيق ، كان ينبض بحرارة الدم ، وشعرها الفاحم السواد سائباً بعشوائية مطلقة . ذقن الحاخام " كاهانا " غزير الشعر ، يمسك التوراة بيد ، ومكبراً للصوت بيده الأخرى ، كان يصيح بصوت الأفعى عند باب قرية " أم الفحم " :
" أيها العرب .. اخرجوا بحياتكم قبل أن نقتلكم .. اختاروا الذهاب إلي أي بلد تفضلون .. سوف نساعدكم علي الرحيل .. هذه أرض صهيون " ..
وكان يرفع التوراة ..
كانت أجسادهم متلاحمة ، وصاحوا في وجهه :
" لن تمر من هنا إلاَّ علي جثثنا أيها المتعصب الأمريكي .. عدْ إلي بلدك وسوف نساعدك نحن علي الرحيل " ..
كانت حوائط الزجاج الثلجي والصلب والأسمنت قد استطالت حتى رأسي ، تفجرت وتبعثرت شظاياها حادة مدببة ، أغمضت عيني بقوة ، تجمعت الحوائط مرَّة أخرى في قوائم أصلب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

وأمتن ، لم أتحرك عندما استدارت هي عند طرف الفراش وعرَّت ساقيها ، كنت أحدق في غلالة الضوء الوردي المرمي علي السقف ، ألقت جسدها فوقي بغيظ ، لم أتحرك ، بوجل تحسست جبهتي الباردة المعروقة ، تسربت شحنة الدفء من جسدها المرمي فوقي إلي فراغ الغرفة بسرعة ، كان ثوبي مبلولاً بعرق غزير ، كان رأسي محموماً وأنا أهذي : طولكرم .. صبرا .. شاتيلا .. أم الفحم .. جميلة .. كاهانا .. ولا أتحرك ، وهي تحدق في وجهي بعينين ينسكب منهما الذعر .

———

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

www.alkottob.com

(1)

كان " الكلوب " الصيني ينشر ضوءه بوهج قوي ، زجاجه اللامع يجذب فراش وأبي دقيق الحقول ، تستميت محاولة الوصول لضوء " الرتينة " الباهر المغري ، ترفرف بأجنحة رهيفة وهشَّة ، تصطدم وتتهاوى محترقة ، لا جدوى ولا أمل أمام الحاجز الشفَّاف ، ووشيش الكلوب لا ينقطع ..

تبددتْ العتمة وتلاشت أمامي لمَّا أقبل الليل سريعاً ، كنا نجلس فوق حصير فُرش فوق أريكة عارية ، بحجرة مدرسنا الأستاذ " إبراهيم " ، نتبادل الكتب ، نحفظ ونصم وننتظره بحماس كي يراجع معنا الدروس ، فلقد كنا نستعد لمسابقة " أوائل الطلبة " في الغد ، وجاء الأستاذ ، لسويعات طوال غصنا في جوف الكتب ، ركضنا علي دروس المنهج ، استعرضنا بمهارة الشاذ والغريب من السؤال ، كادت رءوسنا الصغيرة أن تتورم في حجم ثمرة كبيرة ، واهتزت الأمخاخ في الجماجم كما يهتز البيض الفاسد .

قبيل الانصراف شدد الأستاذ بتعليماته : النوم المباشر ، الراحة ، الاستيقاظ مبكراً ..

كانت عقارب الساعة تشير للحادية عشر مساءً ، ونحن نهم بالانصراف ، وتنبه لوجودي ، ينبغي أن أقطع مسافة خمسة كيلو مترات في الظلمة ، هي المسافة بين قريتي وقرية الأستاذ ، أمسك بساعدي :

- " ابق معنا حتى الصباح يا محمود " .

- " شكراً .. لازم أروح " .

- " الطريق مظلم وطويل يا ولدي" .

- " لا يهم .. ما زال الوقت بدري ويمكنني الذهاب " .

- " لا تكن برأس جاف .. سوف أرسل معك أخي " .

- " لا شكراً .. لست بخائف " .

وانطلقت من وهج الكلوب ومضيت إلي ظلمة الشارع الكثيفة ، كان قلبي يتقافز مرتجفاً ، وأنا أتحسس الطريق بقدميّ ..

عيناي تعتادان الظلمة رويدا رويدا ..

(2)

علي الطريق الترابي الضيق المتعرج المؤدي لقريتي ، بدتْ الظلمة ملساء وناعمة ومخيفة تحت ندى الليل ، تدثر الكون بعباءة قاتمة ، من ثناياها يركض الخوف ، يهاجمني بلا هوادة ، يمتطي كتفيّ فتئن قدماي ، وأنا أعدو بخطو متعرج ، أقلب بصري بين الأشجار السوداء ، نباتات الحقول القائمة أو المحصودة ، السواقي الهامدة وقد انكفأت أنوفها فوق علبها ، مرتكزة علي المدارات الراسخة المتعبة من دوران الأظلاف التي لا تنقطع للمواشي المغماة العيون ، تبغي الوصول إلي نقطة لا نهائية دائرية لا تأتي أبداً ، صوت خرير الماء المتدفق في المساقي والقنوات ، يلطم الحواف الطينية وجذوع الحلفاء الشريرة خشنة الأوراق ، ولا أسمعه ، ارتوت الشراقي وابتلت وشربت النباتات وأوحلت الأحواض بماء راكد يأبى الانصراف ، لحقول الأرز رائحة عطنة تقتحم أنفي ، أشمها واعتاد عليها وهي تتسلل من بين كوادي الأرز والدنيبة وشواشي السمار اللامع ، الحظائر الطينية الخاوية ، المسقوفة بأفلاق النخيل ، تبدو الآن في قلب الغيطان كأوكار أزلية لأبناء الليل ومردة الجن ، شجيرات النخيل الباسقة مغروسة وقائمة ، لا تهتز تيجانها ، خالية الوفاض من الثمرات ، سعفها مندمج فوق جمار القلب الأبيض ، يرتمي في رشاقة قاتمة وصامتة ، لا أجرؤ النظر ورائي ، الأيادي المخلبية العملاقة تلاحق قفاي ، الثواني تتهاوى بثقل بطئ وتمضي هامسة بوشوشات الليل ، مرقت بعض الطيور في العتمة و طمأنتني قليلاً وهي تصدح بلحن جميل ، أصيخ السمع لتقافز قراميط السمك فوق سطح الماء الجاري في الخلجان الصغيرة المتجاورة والملازمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

لرحلة الطريق ، نقيق ذكور الضفدع الخشن يتواصل مع الخطو الوجل المتلهف ، صراصير الغيط السوداء بين المدر الجافة تصر باحتكاك الأفخاذ الرنانة للأرجل المفصلية ، الجرذان التي تبحث عن طعامها وتشم الطريق بخبث ولا تلبث أن تنسل مسرعة ومفسحة لقدميّ ، شقَّت نجمة بطن السماء بذيل محترق وتهاوت بوهج خاطف أخَّاذ للبصر ، انتفض قلبي ، رفرف بجناحين صغيرين كسيرين ، تذكرت وتمتمت بقول أمّي : سهم الله في عدو الدين .. تنزل علي القوم الكافرين ، تظنها أمي تسقط علي بلاد وأناس كافرين ، وأنها تحرقهم وتبيدهم جزاء إثمهم ، قلت : وسوف يحترق الشيطان الشرير ، وأنا أدنو من الكوبري علي مصرف صان البحري ، توقفتُ ، جمدت في مكاني ، هوى قلبي وارتطم بحاجز الضلوع ، هل أصرخ بأعلى الصوت ؟ ، تحشرج الصوت في بطن الجوف ، قلت : أهي النهاية ؟ ، وأنا أرى تلك الهالة البيضاء غامضة المعالم تزحف بطيئة نحوي ، عفير التربة اللزج يكلبش باطن حذائي القماش الكاوتشوك ، إذ بالصوت يناديني ، يخرجني من لجَّة عميقة :

ـ " تعال يا بني .. لا تخف .. من أنت ؟ " .

كان صوته الذي أعرفه : عمي " سليم " ، أكان يروي أرضه ليلاً ؟ ، هل تأخر في العودة لداره ؟ ..

ـ " محمود .. يخرب شيطانك ! " .

سحبني من يدي ، تمتم غاضباً :

ـ " أي مدرسة ليلية هذه يا بني ؟ " .

لم أشرح أو أفسر المسألة ، مضيت صامتاً ومكابراً برجولة مزيفة هزمها الخوف .

نهرني أبي لتأخري ، أحاطت أمي رأسي بذراعيها ، أدارت قطعة " الشبة " زجاجية الملمح فوق رأسي ، تمتمت بترانيم مبهمة أزلية وموروثة : من عين فاطمة ورتيبة وسعدية .. ومن شر النفاثات في العقد .. ومن شر حاسد إذا حسد .. وكل اللّي شافوني ولم يصلوا علي النبي ..

تثاءبتْ بفم بلغ أقصى اتساعه ، دمعت عيناها قسراً وشهقت وألقت بـ " الشبة " في النار .

بينما كنت أغفو علي صوت احتراقها وتحولها لمعالم جيرية بيضاء وهشَّة لرءوس الحاسدات .

(3)

لم تصح الشمس بعد عندما ركبنا الديزل العجيب ، " السانت كروفت " كما ننسبه للشركة الأجنبية ، في الصبح نمضي لمدرسة الصوفية البعيدة .

هناك ، في الركن المعد لنا جلسنا نحن الخمسة ، بين خمس مدارس أخرى في التصفية النهائية ، كان التلاميذ وأولياء الأمور يحدقون فينا بإعجاب وينتظرون .

عندما بدأت المسابقة كانوا يصفقون لكل إجابة صحيحة ، ونحن نُسأل في اللغة والدين والتاريخ والحساب والثقافة وأسئلة الذكاء ..

سُئلنا عن فلسطين ؟ : وقفت وصحت بصوت جهوري : إننا عائدون .. عائدون .

لوح الأستاذ " إبراهيم " لنا بقبضته مشجعاً من بين الحضور وهو يبتسم .

وعن جنوب أفريقيا ؟ : طوحت يدي في الهواء ، وصرخت قائلاً : إننا ندين هذا التمييز العنصري . صاح أحد الحضور من مدرسة أخرى : هذا الولد من الإعدادي ! ، ابتسمنا ثم ضحكنا بفرح . أحمل كأس الفوز بيد وقلم الحبر الهدية بيدي الأخرى ، ونحن نهتف :

ـ " يا محني ديل العصفورة .. وبلدنا هي المنصورة " .

انتصرت " الصوفية " التي رحنا نجوب شوارعها وحواريها وأزقتها في زفَّة كبيرة ، وخرجت النسوة من الدور ، صفقن ، زغردن ، نثرن حبات الملح فوق الرءوس .

(4)

ـ " هذا الكتاب عن مصر .. هدية لك يا محمود ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

قال الناظر هذا وقبلني وأعطاني هديته وشدَّ علي يدي ، شكرته ، خرجت من مكتبه ، في الردهة رحت أتأمل الصاروخ " القاهر " المصنوع من الورق المقوَّى ، والمعلق بسلاسل نحاسية لامعة في سقف صالة مدخل المدرسة ، علي الجدران المواجهة بدت الأعلام زاهية ، أعلام عالمنا العربي ، وأعلام دول عدم الانحياز ، تحسستُ أجنحة الصاروخ البارزة ومقدمته المدببة فضية اللون ، شددت قامتي واحتضنت كتابي وعدت لفصلي مزهواً .
عندما دقَّ جرس الانصراف ، عرجت إلي محطة الديزل ، ابتعت مجلة القوات المسلحة لرخصها ، دسست ثمنها ـ كل مصروفي ـ في يد البائع " قرشين صاغ " .

(5)

تحت الكافورة العملاقة بجوار الدار كنت أقلب صفحات المجلة بنهم ، لأوراقها وطباعتها رائحة خاصة تميزها أنفي ، بها أحببت " يوسف وهبي " وأدهشني مسرحه الذي لم أره طيلة حياتي ، تجولت مع " بوب هوب " الممثل العالمي حول بنايات الأهرام ، تحت صورة جندي فلاح مصري يتسلق الصخور الوعرة بعافية وخفَّة ، أحد جنودنا باليمن : " نحن نحقق جميع رغباتكم " ، الجندي " عبد العال السيد " يطلب حفظ وظيفته لحين عودته ، الجندي " عمر علي " يرغب في نقل زوجته من طنطا إلي المحلة ..
أدهشني " جاجارين " أول رائد للفضاء ، صراع العملاقين علي الأرض وبعيداً عنـها ، وعن " بن بركة " ، المناضل المغربي ، كانوا قد خطفوه في شوارع باريس ، وعذَّبه " أوفقير " قبل أن يطلق عليه الرصاص ويصفيه جسدياً ..
وأخيراً ، أمضيت وقتاً طويلاً ، وأنا أتجول بين جنودنا في مواجهة إسرائيل المزعومة ، عند " القسيمة " و" الكونتيلا " ، رأيتهم يمشون في خنادق تشبه مصارف الحقل ، ورءوسهم تحت الخوذات بمحاذاة سطح الأرض ، كانوا ينظرون صوب الأرض المحتلة ، يتشوقون للحظة المعركة الفاصلة وتحرير فلسطين .

(6)

أقبل العم " عبد العال " عامل المدرسة سعيداً :
ـ " مبروك يا محمود .. أنت الأول علي القبول بالمدرسة " .
فرحت أمي وزغردت ووزعت الشراب الأحمر علي الجيران .
أخذتنا الفرحة لأسابيع عديدة ، حتى اندلعت المعركة .
لزمت البيت استرق السمع لآخر الأنباء من كل إذاعات العالم من راديو ضخم " سيبرا " يعمل ببطارية خضراء كبيرة .
لمَّا عاد أبي ومعه صحيفة الأهرام ، حدقت في صورة الطيَّار الإسرائيلي الملقاة علي الرمال ، كانت إذاعة العدو تناشد سكان القرى :
" ارفعوا الأعلام البيضاء .. جيش الدفاع يتقدم نحوكم " .
حدثتني نفسي :
" أهو برنامجهم السخيف : أكاذيب وحقائق .. مرَّة أخرى ؟ "
لكن هاجساً هتف بي ، أقلقني ، زعزع الأمن في قلبي ، دعوت الله أن يكون نطقهم كذباً .
أدرت مكثف الراديو بضيق حتى توقف المؤشر عند " صوت العرب " : كانت قواتنا الباسلة تتقدم صوب تل أبيب ، تساءلت : أين القاهر ؟ ، لكني أزحت السؤال وتمتمت منتشياً مع " فهد بلان " :

(نحن للسيف للسيف .. نحن للضيف للضيف
نحن نعادي اللي يعادي .. ونسالم من يسالمنا)

(7)

تحدث " عبد الناصر " بصوت محزون ومخنوق :
ـ " سأترك موقعي " .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

بكى المذيع ، أطلت نهنهته من المذياع بحرقة ، هل أدركت المأساة فبكيت بدوري ؟ ، أخفيت دموعي وأنا أخرج من الدار ، أجر قدمي علي تراب الأرض ، مضطرم المشاعر ، مشتت الفكر .. ، أقبل الغروب خانقاً مغبراً ، يتخفى خلف غيوم زرقاء داكنة ، تتمطى علي صفحة السماء العالية ، تلطخ وجه الشفق ، تشوه حمرته النارية الغاضبة وهي تخبو متراجعة مهزومة ، من شارع لآخر حتى الجامع ودكان البقالة ، كان البقال " حسن " يداعب ويضاحك زوجته " سعاد " .
الفلاحون العائدون المنهكون بعد يوم من العمل الشاق ، يمتطون المطايا علي مراشح بلا برادع ، تتدلَّى سيقانهم السمراء طويلة وقوية ، يجرون مواشيهم ، يدخلونها للدور قبيل حلول الظلام ..
هل أهتف أو أصرخ ؟ ، أيقولون إنني مجنون ؟ ، أيخونني صوتي ؟ .
يركبني الخجل المورث ، أبحث عن نفسي كي أحادثها ولا أجدها ..
أدخل الجامع وصوت المؤذن يدعو للصلاة .

(8)

انتظرت " السيد النجَّار " جارنا الجندي المجند ، أ يحدثني عما حدث ؟ .
مرَّت أيام طوال كالدهر ، يطول الانتظار ولا يأتي .
بكت خالتي " أم السيد " وولولت عندما جاءت إشارة من المركز تقول :
" السيِّد النجار مفقود " ، لكنها قالت : السيد مات .. مات .
رأيته في آخر لقاء وهو يحكي عن صرامة " الميري " في الجيش ، إنهم يفتشون عن نظافة الأرجل والأظافر والملابس .. حتى شعر العانة ..
لكنه ذهب ولم يعد .. مفقود .
همست امرأة بدينة لجارتها :
ـ " مصيلحي ابن زينب عاد ليلاً .. وكان يحمل سلاحاً " .
تنقل الهمس ، فتجمهرنا أمام داره ، أطل علينا أخيراً بعينين منتفختين وجسد مرهق وقدمين متورمتين ، ولمَّا تكاثرنا حوله تخلص منا بضيق وحزن وشرود ، أوصد بابه الكبير في وجوهنا وتوارى خلفه ..
لم ينبس ببنت شفة .

(9)

أصابني المرض خلال العطلة ، وأقبل العام الدراسي الجديد سريعاً ، سمعت أنهم عند حافة القناة . جاءت لقريتنا عائلات وافدة ، قيل عنهم " مهجرون " ، لعائلة منهم بنت في مثل عمري اسمها " سونة " ، طويلة وممشوقة وناعمة ولها شعر قصير ، ابتسامتها عذبة ورائعة ، دخلت معنا الفصل .
بحثت عن أعداد أخرى من المجلة التي أفضلها فلم أجدها ، اختفت .
أخذني حديث " سونة " عن بيتهم الذي دكَّه المعتدون في " العرايشية " بالإسماعيلية ، عن أبيها الذي يعمل بشركة القناة ، وكيف كان ينقذ الجرحى العائدين من سيناء صوب الغرب ، عن الطائرات التي تحلق في السماء ، عن الناس التي تهرب من جحيم القصف إلي بلاد أكثر أماناً ..
وتواترت الأنباء : انتحار " المشير " بعصير مسمم بالأكونيتين .. محاكمات في الجيش .. تطهير صفوف القوات وبناء جيش التحرير .. يد تبني وأخرى تحمل السلاح ..
وكانت كل الأصابع تشير بالاتهام : أميركا والاستعمار .

(10)

صارت " سونة " كل شيء في حياتي ، هل أحبها ؟ ، ما هو الحب إذاً ؟ .
بدت في عيني كملكة فرعونية صغيرة تتربع فوق عرش الجمال ، شعرها المقصوص علي جبهتها السمراء ، قوامها الفارع الممشوق بعناية ، نهداها الصغيران المندفعان تحت الثوب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

الضيق الناصع النظيف . شاركتني طريقي ذهاباً وإياباً للمدرسة ، وأنا أحوطها بعيني وقلبي . كنت أريد أن أقول لها إنني أحبك يا " سونة " ، لكنني كنت أتلعثم ولا أستطيع البوح بمكنون قلبي ، وأداري خجلي وتوتر ذكورتي .
صارت صورتها لا تفارق مخيلتي ، صارت قضيتي هي كيف أستجمع شجاعتي وأنطق لها بالكلمة التي تؤرقني وتقض مضجعي :
أحبك يا " سونة " .. يا بنت المدينة الجميلة .

(11)

ـ " قيــام " .
في الفصل المدرسي وقفنا ، دهشنا ، دخل الفصل ففوجئنا به ، ضابط شاب ..
ـ " جلــوس " .
جلسنا ، تحدث عن نفسه متأثراً عن الجيش الذي سُرِّح منه ، بسبب وشاية ظالمة من أولاد الحرام ! ، لم يقل لنا من هم أولاد الحرام هؤلاء ..
أخيراً قال :
ـ " سأدرس لكم مادة الرياضيات إن شاء الله " .
همهمنا بضحك مكتوم ونحن نستبعد المسألة ، كيف لهذا الضابط الشاب أن يكون معلماً ؟ .
تجهم وغضب وعاقبنا ، أوقفنا بالفصل في طابور " أميري " صامت .
أمضى الحصة بأكملها يلعننا تارة ، ويلعن الجيش والنكسة مرَّة أخرى ، ويصفع كل من تسول له نفسه مجرد الهمس .
لمَّا دقَّ الجرس أجلسنا ، ثم ابتسم وقال :
ـ " سأدرس لكم مؤقتاً .. مؤقتاً .. سوف أعود للجيش " .

(12)

في حجرة جلوس بسيطة الأثاث في بيت " سونة " قال أبي :
ـ " يا أوسطى أحمد أنتم ناس طيبون .. والناس لبعضها .. نحن تحت أمركم في أي شيء تحتاجونه .. أرجوك اعتبرنا أهل " .
وردَّ الأوسطى " أحمد " :
ـ " أدام الله المعروف يا حاج .. هذا هو العشم فيكم والله " .
سأله أبي عن آخر الأخبار ، وطفق الأوسطى يحكي عن استفزاز العدو لنا عند الشاطئ ، كيف ينزعون ملابسهم ـ مجندون ومجندات ـ ويلقون أنفسهم عرايا في مياه القناة ، يستحمون ويلوحون بأيديهم لنا ، ويسبوننا بألفاظ عربية بذيئة ، أحياناً يمارسون لعبتهم القذرة في القصف العشوائي للمدينة .
كنت مشتت الذهن ، مبعثر الأفكار ، أنصت لهما أحيانا ، أهرب أحياناً في طرق بحثي الدءوب عن " سونة " التي انتظرها ولا أراها ، وهي تركض بين حنايا القلب الصغير ، تملأ مقلتي وتتسيد تضاريس عقلي ..
وتدخل " سونة " تحمل صينية الشاي ، كانت تبتسم برقة خجولة ، والأوسطى " أحمد " يربت علي كتفي :
ـ " خلي بالك من سونة في المدرسة " .
رفعت رأسها فنظرت في عينيـها .

(13)

ـ " هذه صورة فاتن حمامة .. رسمتها نقلاً من غلاف مجلة " .
قلَّب أستاذ الرسم اللوحة في يده ، كانت ترتدي فرو جميل ، كنت مبهوراً بجمالها وأناقتها ، أحبها ، أتمنى أن أحب واحدة مثلها لمَّا أكبر وأتزوج .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

لكن " سونة " السمراء امتلكت حياتي الآن ، وأسرتني بحبها ، فتنازلت عن اللوحة التي أعجبته وقال عنها : جميلة . احتفظ بها ، وكافأني بورق مستطيل للرسم وفرش مختلفة الأحجام وعلبة ألوان مائية .
عندما عدتُ للبيت ، بسطتها فوق الحصيرة ، انكفأت فوقها باقي النهار وحتى منتصف الليل .

(14)

في الصباح أشار معلم الرسم لحائط مكتب الناظر :
- " هذا أفضل مكان لها " .
شدَّ الأستاذ " فريد " ناظر المدرسة علي يدي ، أحاط كتفي بساعده :
- " برافو .. برافو يا محمود " .
كانوا يحدقون في اللوحة المستطيلة بعرض الحائط ، يمسحونها بأعينهم :
" جندي فلاَّح مفتول العضل .. يشمر عن ساعده .. الخوذة علي رأسه مثبتة بسير جلدي أسفل الذقن .. الأوفرول أصفر كاكي اللون .. يمضي بخطى ثابتة .. تبين خلفه الأهرام والجوامع والكنائس .. المصانع والنيل والأرض الخضراء .. المدارس والجامعات والبيوت .. كان يصرخ بحروف كبيرة .. مكتوبة بمداد أحمر لون الدم القاني .. بزوايا قائمة ومتوازية .. لها ظلال سوداء طويلة .. ترتكز فوقها بثبات : (تحيا مصر) " .

(15)

في الفسحة تظاهرت بانشغالي عنها ، وأنا أرمقها خلسة وهي تقف أمام اللوحة طويلاً ، تهرول نحوي وأنا بين زملائي ، كانت منتشية وسعيدة ..
- " أهلاً يا سونة " .
- " لوحتك جميلة " .
ولمحت بريق السعادة في عينيها الحلوتين ، ورغم أنني أحسست بالقطرات الساخنة تتفصد من بدني ، فقد انطلق لساني من عقاله :
- " أنت الأجمل يا سونة " .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

ظلال الطيف

خُن الأرانب كان واطئاً ، الملاط المخلوط بتبن القمح تهاوى في رقائق هشَّة ..
لماذا يطول الشتاء هذا العام ؟ ..
برده القارس ، أمطاره المدرارة لا تنقطع .. قال جدِّي :
ـ " ما حصلش مطر زي ده من سنين " .
كان الشتاء ينصرم ، ولا يأبى إلاَّ أن يخلف أثاره علي واجهة الخن وبيتنا الطيني ، نبتتْ الأخاديد عند السقف وسالتْ حتى الأرض المتربة .
السهل الرملي ينبسط كالكف حتى حضن التلال ، وقد اكتسى بنبت شيطاني أزهاره حمراء جميلة ، صليبية البتلات ، بلا رائحة . وسيقان الخبيزة الريَّانة تزاحمت حتى اعتلت الشواهد الرملية لمدافن الراحلين ..
المرأة البراوية " فضَّة " ذات الرداء الرمادي ، المزركش بخيوط ملونة ، المطرزة بعناية وحائلة اللون ، كانت تقطف هذه السوق الريَّانة وتلملمها في فضلة ردائها ، كانت تحمل ابنتها الصغيرة علي ظهرها وهي تسعى ، مدورة الوجه ، قميصها قصير علي لحم مقدد هزيل ، ألمح في عينيها الواسعتين لمعة بلا لمعة وهي ترمقني تطارد ماعزها ، يتدلَّى الضرع بين الفخذين ، أسمع ثغاءها ، تلحقها السخلتان الوليدتان ، ترعى الأرض الطافحة بالكلأ .. لماذا يسكنون العش المصنوع من غاب المصارف وبردي البرك والقش المجدول في هذا الشتاء الطويل ؟! .. أرى ، أحياناً ، زوجها " سليم " تحت شجرة التوت ، ذلك المسن يبحث عن شجيرات الخروع البرِّي أو المزروع بين الحقول ، يبغي ثماره الكروية المجعدة بالشعيرات ، يجمع بذورها الجافة ، بيعها لتاجر سوق الاثنين . لكن شجرة التوت عارية الجسد ، صمدت أمام عصف الرياح في الموسم الطويل ، اغتسلت كي تكتسي بثوب جديد ، البراعم الطفلية تتباعد أجفانها في عين الشمس الصافية . السماء المغسولة تحد الأفق البعيد ، كانت أجنحة الطيور تتقلب هناك صوب الحقول وفوق المدافن وعند أعشاش " البرارة " ، تصدح في طبيعة لا تكف عن الابتسام ، هل ولَّى الشتاء وجاء زمن الربيع ؟ ..
أ هو الربيع إذن !
أصغي للصوصوة ، الزقزقة ، الكركرة ، الثغاء ، الهديل .. في صمت رطيب تصافح سمعي .
كنت أرى الأرانب ـ أرانبنا ـ تحت عين القمر في صمت المساء ، تقفز ناحية التلال ، تأكل النباتات الشيطانية ، تتزاوج وتتكاثر ، لا تعود .. أو عندما تعود تكون ناقصة العدد ، لم يتركها أبو الحصين تنعم بحرية بين الكلأ ، أسمع أنثاه شريرة الأنياب " تعوص " بعويل متواصل في جوف الليل ، إنه يأتي من بعيد ، من وراء مصرف صان البحري وبرك الماء والبردي .. أتسمر واقفاً أمام " المزيرة " أحدق في الغبشة ، الزير يقطر ماءه ، تتساقط قطراته قطرة تلو قطرة ، تصطدم ببطن الإبريق الفخاري الأسود في توال ممل يجرح صمت الليل ، أصدقائي ناموا من بدري ، كي يصحوا بدري ، في البدرية أراهم علي أسمنت الكوبري يحملون صرر الطعام ، الريس " عبد العزيز " يأخذهم جماعات ، يوزعهم علي الوسايا والإقطاعيات وأراضي الإصلاح الزراعي ، أرغب صحبتهم وهم يغنون بشجن محبب :
" يا خولينا يا حتَّة سكره "
لكني أمضي إلي الكتَّاب ، أحفظ جزء " عم " من القرآن ، يتبدد حزني رويداً رويداً حتى المساء فأتلهف عودتهم .
ـ " خد بالك عند الباب يا عبده "
قالت أمِّي وهي تشمر عن ساعديها ، تحني جذعها وتلج الخن ، أطل برأسي ، أراها تطارد وتحاصر الأرنب في الركن ، يقفز ويهز شواربه ، ألمح الدموع اللؤلؤية في حدقتيه ، تخرج أمِّي قابضة علي أذنيه ، تحكم رتاج الباب الصغير بالعصفورة الخشبية ، أهفو للذهاب معها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

لسوق الاثنين ، يرتج قلبي في تلهف صبياني لشرب البوظة وأكل العيش والطعمية والتحلية بالدردرمة من العم " أبو زكي " .. لكنها تأبى بأمر قاطع :
ـ " خليك مع جدِّك " .

* * *

في مقعده أعلى الدار ، أصعد الدرج إليه ، أراه قابعاً أمام دولابه العتيق ، الذي يشبه صندوق الدنيا بغرائبه وعجائبه ، وأشم رائحة الزخم القديم ، أتوق للفرجة في المجلة القديمة سميكة الورق .. يشير بإصبعه النحيلة :
ـ " ده محمد علي الكبير .. ده إسماعيل .. ده فاروق الأول ملك مصر "
وأرى خط قلمه الأبنوس برقعة جميلة ذيل كل صورة :
" عاش الرئيس جمال عبد الناصر "
لا أجرؤ سؤاله :
لماذا يخبئ صور الملوك الراحلين ؟! ، لماذا يدسَّها بين طيَّات كتبه الصفراء القديمة ؟! ..
ـ " مالك مسهم كده يا عبده ؟ "
سألني جدِّي عندما رآني شارداً ، وأنا أحدق في الإطار الزجاجي وأطل عليه وأراه :
" شاباً عفياً أسمر الوجه والشارب ، يمتطي صهوة حصانه علي السرج اللامع ، قبضته القوية علي اللجام الجلدي ، والأصابع تضوي بخواتم فضية وذهبية ، والأدهم مشرئب بعنقه ، وغرَّته بيضاء ، والقوائم منتصبة في تناسق ، يتحفز كالسلوقي ، ويرتمي الظل تحت فرشة الشمس ويرتقي الجدار ، يفتح الفضاء ذراعيه وراءه حتى حضن التلال "
أ هو الجد إذن ! ، لكن كيف ؟ ..
ـ " كيف يا جدِّي ؟ "
ـ " أيَّام يا عبده يا بني .. أيَّام !! "
أحس بارتعاش أنامله علي ظهري ، وأنظر وجهه المغضن بأخاديد السنين ، الزمن الذي ولَّى ولا يعود أبداً ، اللحية البيضاء المهوشة علي سحنته السمراء اللامعة بالعرق ، أكاد أستبين سريان الدم في مجاريه الدقيقة ..
ـ " فين حصانك يا جدِّي ؟ "
يتنهد من جوف صدره المنهك ، يشرد قليلاً وهو ينظر نفسه محصوراً في الإطار المغلق ، يمسك بساعدي :
ـ " تعال يا عبده لنفطر .. أنا جوعان .. أمك سابت الفطور تحت " .

* * *

عند النخلة الحيَّاني فوق رأس الغيط ، حكى الجد لي عن بنت جميلة اسمها " لولجا " ، جمالها غريب كغرابة اسمها ، كانت " لولجا " تحب الفارس المغوار الذي يمتطي صهوة الأدهم ، تعلق قلبها به وهي تراه يثب به ويطوي الرمال والأيام والليالي ، لكن الساحرة الشريرة أضمرت الشر للحب المتبرعم ، فكرت في وأده ، ألقت بمرآتها في طريقه ، فصارت بحراً ثائر الأمواج يفصل الفارس عن حبيبته " لولجا " ، كي يسقط الحب ويغرق ، وألقت بمشط شعرها الخشبي المزخرف بطلاسم السحر ليصير قفراً ممتلئاً بالأشواك السامة ، كي تدمي فؤاد الحب وتقتله ، لكن الأدهم يطوي الزمان والمكان ، لكن .. آه من لكن هذه ..
أشار الجد بإصبعه النحيلة لطائر " أبو العلا " ..
أرى الطائر مرقشا بلون السماء وهو يصدح محلقاً فوق النخلة ، أراه يهوي بثقل الجسد ويرشق صدره في " السِلَّة " .. شوكة السعف المدببة تغرس بطن الصدر بحربة مسنونة الطرف ، يميل برأسه ويُغمض أجفانه ..
ـ " وبعدين يا جدِّي ؟ "
ـ " القدر يا عبده .. القدر يا ولدي "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

أشرد قليلاً مفكراً في القدر :
ـ " أنا ما حفظتش سورة القدر يا جدِّي "
ـ " علشان كده ما روحتش الكتَّاب النهارده "
ـ " لا يا جدِّي "
تحت أقدام النخلة يرتمي الظل الطويل علي أرض صلبة مستديرة ، علي أطرافها أكوام القش والحطب القديم والتبن المتخلف من الدرس .
كانت الحمامات واليمامات والعصافير لا تكف عن الحركة والطير ، تلتقط الحبَّات المتوارية مع الثرى ، تشبع الحوصلات ، أنثر التربة الناعمة علي الفخ ، أسلاكه صلبة بفكين قويين ، صنعه الجد لي في يوم طويل ، أنثر عليه حبَّات الذرة الجافة ، ألبد في حمل القش ، أنتظر متلهفاً وأنا أرى الحمامة تقترب ، ينتفض من مكمنه كالجن المصوَّر ، يثير الغبار ، يقبض بلا فكاك ممسكاً الجسد الساخن الحي ، ترف الحمامة بلا جدوى ، تستسلم للقدر ، تهمد ساكنة ترنو لي وأنا أقترب .
ـ " أنا ما حفظتش سورة القدر يا جدِّي "
أعرف " الزخمة " .. سير الماكينة القديم المشبع بالزيوت ، لن ترحم قدميَّ وسيدنا الشيخ إسماعيل يهوي بها ، يقرع بطن قدمي وأنا أصرخ ، تترك علاماتها علي جلدي الحي ..
ـ " أمي راحت السوق وقالت خلِّيك مع جدك "
لمحت الحسرة طافحة علي وجهه ، كان يرنو للأرض الممتدَّة علي مدد آخر الشوف .. أ كانت أرضك يا جدِّي ؟ ، كيف تبيعها للأغراب ؟ .. عيناه تسرحان من حد المصرف البحري حتى نهاية الحوض القبلي .
أيصدقني الجدُّ القول لمَّا يحكي عن الفارس المغوار الذي يرمح بحصانه في المراح ، عندما تكيد الساحرة بسحرها ، عندما يسقط وتضيع " لولجا " ، يمضي العمر وتباع الأرض ، تبور وتخسر التجارة ، اللحم الحي لنساء الكون لا يكفي ، الزمن الذي آمل فيه وخاله طويلاً ، امتطى عمره القصير وركض به في مراح قصير دون أن يدري ..
ـ " ياه .. ياه يا جدِّي ! .. كل الأرض كانت أرضنا "
أخذ وجهي بين كفيه :
ـ " ليه ما حفظتش سورة القدر يا عبده ؟ "
* * *
ولمَّا جاء ذلك اليوم ..
في البدء صاح الجدُّ صيحة عظيمة هزَّتْ أركان الدار ، أطلَّ علي أثرها الجيران علينا منزعجين .
أمسك الجد بتلابيب أبي ، طوَّح كفه في الهواء ، وصفعه بكل العزم :
ـ " عاوز اتجوز يا بن الكلب .. جوزني لولجا .. لولجا "
احتواه أبي بين ساعديه واحتضنه ، راح يهدئ من روعه ويربت علي كتفيه :
ـ " حاضر يابا .. أجوزك لولجا .. اسكت دي الوقت "
وكان يختلس النظر للعيون المتطفلة بخجل .
انتفض الجدُّ ، لوَّح بيده وضرب بها الحائط :
ـ " عاوز لولجا "
كانت أمي لصق الجدار تدمع ، همستْ :
ـ " فتَّح النوَّار .. نصيبه .. في الميعاد "
هل يخرف جدِّي ؟ ، أ علي منحدر الشيخوخة يهوي بجنون العقل في الميعاد .. مع تفتح النوَّار في خضرة الغيطان ؟ ..
ـ " مالك يا جدِّي ؟ "
قال أبي :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

ـ " اسكت يا ولد "
نظر الجدُّ نحوي ، تمتم بصوت هادئ :
ـ " عبده .. يتجوز معي "
وضمَّ رأسي بكفه المرتعشة في ثنايا ثوبه ، فشممتُ رائحة الزخم القديم الذي في حجرته ، ابتسمت أمي وهي تلعق دموعها بلسانها . لمَّا يعبق الهواء بروائح النوَّار ، يذهب عقله ويرف طائراً ، هو المثقل بهموم الأيام الطوال وحزن العمر المديد ، الممتد بطول الزمن القادم من بعيد ، يثقل عليه المرض فلا يهجر الدار أبداً ، نتألم لنزق العقل الغائب في الخفاء ، يصير طعامنا كالملح الطافح علي سطح الأرض الجدباء ..
أ يكون الجدُّ مثل " مبروك " الأهبل ؟ ، " مبروك " الذي أنظره عند ضريح " أبي مطاوع " في ذهابي أو أوبتي من الكتَّاب ؟ .. الضريح يعلو الهضبة الرملية بقبة من الصخر الجيري ، باهتة ومغبرَّة بفعل السيول ، تتراص حول جداره " البنيات " الصغيرة التي نذرتها النسوة ، وصنعنها علي شاطئ الخليج بالطين المعجون تبناً ، وضربنها بالكفوف ، وتركن لها فتحات صغيرة مستديرة تدخل منها الشمعات بعد أن يشعلنها ، يميلونها ليسقط مصهورها الساخن ليذيب الجامد وتجد لها مكاناً للغرس .. أقرأ فاتحة الكتاب " شي الله يا أبو مطاوع " وأرى الكفوف تمسح الوجوه المكدودة قبل أن تنزل من الهضبة إلي السفح .. أراه " مبروك " ككائن أسطوري خرج لتوه من جوف المدافن ، جلبابه قديم ، عمامته كالحة ، عصاه الجريد الجافة مستقرة علي كتفه ، من خلفه تغمز ذؤابات الشموع المتقدة بضوء شحيح من الفتحات في العتمة ، يلوح في عينيَّ كشبح مخيف وهو يصرخ ، " جعيره " أهبل يجرح الآذان ، يثير الشفقة مع البسمة ..
أسمع أمي وهي تقول :
ـ " لو شفي الله جدك يا عبده .. النذر أمانة .. دستة شمع لأبي مطاوع "
* * *
في توالي الأيام ..
نزل الجدُّ أرض الجار ، جمع ثمرات الفلفل والباذنجان وملأ حجر ثوبه ، كتم الجار غيظه وكبح جماح نفسه ، غضب أبي :
ـ " ودي أصول جيرة يابا ؟ "
ولفائف التيل الجافة المعلقة بمسمار حديد كبير بحجرة المعاش ، أنزلها الجدُّ ، واصطحبني إلي حيث النخلة ، خلع ثوبه وتفل في كفيه ، وظلَّ يفتل الحبال ، ويشدها لتتماسك علي بطن قدمه مرَّة أو علي لحاء النخلة مرَّة أخرى ..
ـ " شد معي يا عبده .. شد حيلك "
ولمَّا عاد أبي ورآه يكومها في صحن الدار صمت ولم ينبث ببنت شفة .
مشيت خلفه ، قذفنا الكلاب الضالة بالحجارة ، قفزت وراءه مراراً وهو يدور حول طريق الجبَّانة ، كانت القبور مبعثرة تحت أقدام الضريح فوق السفح ، تمتد بلا نهاية ، من بين شجيرات الإتل ونباتات الصبار عبرنا طريق المصرف ، عرجنا صوب النهر ، هناك .. نضَّ ثيابه ، نزل النهر والماء أول الدور ، تمضي المياه عفيّة ، تكسح الراكد ، رأيته عاريَّاً كطفل وليد ، ضامر الجسد ، يحجب عورته بكفّه ، عند حجر المصلَّى النازل للماء كبش الرمال الناعمة البيضاء ، مسَّد الجسد الضامر ، دلَّكه بيده حتى احمر لونه في عين الشمس ، غطس بالماء وطفا علي سطحها ، صار رأسه بلون فحل البصل الكبير ..
يبرد بدنه ويأتيني صوته من فوق الماء الجاري :
ـ " بحر النيل عمره ما يشيل نجاسة أبداً يا عبده "
* * *
في إحدى الأمسيات حكى الجدُّ وقال :
ـ " أنا شفت ليلة القدر يا ولد .. لم أطلب سوى الستر "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

قالت أمي مؤمنة علي كلامه :
ـ " ما فيش أحسن من الستر "
ضاحكه أبي وقال :
ـ " يا ليت طلبت لنا ألف جنيه أو حمار من دهب "
ردَّ الجدَّ مبتسماً :
ـ " أخذتني لهفة المفاجأة يا عبيط .. شفت طاقة النور بألوان الطيف السبعة وطلبت الستر "
قال أبي بعفوية :
ـ " ما هي ضاعتْ من زمان يا با "
زام الجدَّ كأسد جريح .. وتفل في وجه التراب وهو ينظر بغيظ لأبي :
ـ " خلفة حرام يا أولاد الكلب "
وأدار ظهره لنا محتجاً ، حدَّق في الحائط الموسوم بسواد الرواكي وسناج المواقد وغبرة الأيام .. فخاطبت أمي أبي بلوم :
ـ " يعني لازم تزعله يا بو عبده !"
فقام أبي يحتضنه ، وراح يقبل الرأس البصلية ، أزاحه جدِّي بوهن .. فقلت لجدِّي :
ـ " يضحك معك يا جدِّي "
انفرجت أساريره أخيراً وهو ينظر نحوي ويقول :
ـ " طب قل له يا عبده يجوزني لولجا "
فغرقنا جميعاً في الضحك .
* * *
وقف الجدُّ بين الصفوف في صحن الجامع ، صاح بعلو الصوت في الشاب المتأهب لصعود المنبر :
ـ " انزل يا كافر "
بُهت الشاب ، سرت الهمهمة بين المصلين ، تطلعوا حيث الجدُّ ، جمع الشاب رباط جأشه ، خطا بقدمين ثابتتين علي فراش الدرجات القليلة ، استقر أعلى المنبر جوار جريدة النخل الجافة المركونة ، التي حلَّت موضع السيف القديم ، ثم قال وهو يهم بالجلوس :
ـ " السلام عليكم "
جأرتْ أصوات الجموع :
ـ " سلام ورحمة الله وبركاته "
آنئذ كان أبي يشق الصفوف ويتخطَّى حُرمة الأعناق حتى وصل إليه ، ربت علي ظهر الجدِّ ، وأجلسه.. كان الشاب الأزهري الذي اعتلى المنبر ما زال طالباً يدرس العلم ، لكنه يعتلي المنبر بين الحين والحين ، لماذا لا يرضى جدِّي عنه ؟ ، سمعته يردد أنه يقرأ كتب الإنجليز ويدخل بها الجامع .. " الكافر يدخل كتب الإنجليز بيت ربنا " ..
كان المؤذن " عبد الهادي " قد أنهى الأذان ، ووقف الشاب : حمد رب العرش العظيم ، صلَّى علي خاتم النبيين ، حكى عمَّا جاء في الأثر عن شيخنا الصالح ، شيخ ضريحنا " أبو مطاوع " .. قال : إنه مشي يوماً بين القبور وقال :
" السلام عليكم يا أهل القبور .. أنتم السابقون ونحن اللاحقون "
" وعليكم مثل ما قلتم أيَّها الزاهد الصالح "
جاءه الصوت من جوف المدافن ، فسألهم :
" أخبرونا بحالكم .. نخبركم بحالنا "
حدثوه عن الأكفان التي تمزقت ، الأجساد التي بليت ، العظام التي تفتت ، الحدقات التي سالت ، الشعر الذي تبعثر ، الأرواح التي تشقى في العذاب والأخرى التي تنعم في النعيم ..
قال لهم :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

" إن أهلكم قد نسوا الديَّان .. أغرتهم الدنيا بزخرفها بالجنيه والريال والدولار .. جل همهم الركض وراء المناصب وجمع الأموال .. تفكك جمع الأسر بين البلدان .. تبدلت صور المدن والكفور .. ضعف النسل وضنَّ الزرع .. قلَّتْ البركة في الحقول والبيوت .. ضاعت لقيم والأخلاق .. السرقة من العباد شطارة وفهلوة .. الاعتداد بالشرف عجز وارتداد .. خاف الأخ من أخيه .. صحتْ الفتنة النائمة .. تبرجتْ النسوة وكشفن العورات .. لطخن خلقهن بالبويات .. ضاع الشباب في الزحام وداخوا السبع دوخات .. لا عمل يشبع الحاجات .. ولا حجرة تأوي الزيجات .. ولا موضع لقدم مريح في المواصلات .. تمزقت الأعراف والعادات .. صار من المعتاد أن نرى الولد والبنت يمارسان الفسق في الطرقات .. كأبناء الكلاب يفعلان .. ولا يجدان من يرجمهما كما ترجم الكلاب .. رغم أن ما تفعله الكلاب هو من طبيعة الحيوان .. وطغى سماسرة الزمن والتجار .. وما أدراك ما التجار! .. خاصة تجَّار الأقوات .. الحديث عنهم يطول ويطول ويطول .. وسبحان مغير الأحوال .. يتغير الخلق وله وحده الدوام ..

* * *

عاد الجدُّ من الجامع هادئاً ، تناول طعامه ، تجشأ ..

ـ " ناولني القلَّة يا عبده "

رفعت غطاء قلَّة الماء النحاسي ، ناولتها إيَّاه ، دلق الماء في جوفه بعد أن صرَّه بين أسنانه المهشمة ، مسح فمه بكمه وحمد الله :

ـ " حفظت سورة القدر يا عبده ؟ "

ـ " أيوه يا جدِّي "

ـ " طب سمَّعها لي "

بان السرور علي ملمح أبي وهو يحدج أمي بعينيه غير مصدق ، وقال :

ـ " الحمد لله "

فتلوت " إنَّا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر .. " ، تجلت لي طاقة النور الربَّانية بألوان الطيف السبعة ، مبهجة ومنيرة ، أخَّاذة للقلب الطفلي ، تتأتى من آفاق علوية ، تهز البدن وتخفه ، يستحيل لخف ريشة ذهبية ، حمامة تقلش ريشها وتذروه الرياح ، حمامة تنتفض بين فكي فخ سلكي ، يصطك فكَّاه في الفراغ ، يثير الغبار ، أحررها ، تحملها أجنحة الهواء ، معها أصعد وأعلو فوق الدور حتى الجامع ، أرتقي المئذنة حتى الهلال الخشبي القديم ، من عصر أتراك رحلوا من زمن ، أوْذن .. حي علي الصلاة .. حي علي الفلاح .. أهبط الدرج الضيق الحلزوني ، الظلمة رطبة ، يهبط الروع في قلبي المستكن ، لا يريم ، تذبل بتلات النورات ، تتساقط تحت بزوغ الثمرات الصغيرة المتبرعمة ، غضَّة وفجَّة ومرَّة المذاق ، عاد للجد عقله الغائب ، أراهم صفوفاً خلف صفوف ، يفترشون القش والحصر ، عمائم وطواقي منبعجة وقائمة ، أصعد المنبر ، أدرج السلم الصغير ، جاء في الأثر ، عن شيخنا " أبو مطاوع " أقول ، يا سكَّان الآخرة أخبرونا ، عن حالنا نخبركم ، غامتْ طاقة النور ، امتزجت ألوان الطيف السبعة ، استحالت ضوءاً أبيض باهراً ، كان جدِّي يبتسم ويطلب الستر ، يتكئ ، يميل ، ينطق الشهادتين ..

* * *

في النعش المغطَّى بمفرش الستان الأخضر اللامع ، فاح عطر غريب كغربة أيامه ، أراه راقداً وأسأل نفسي :

أ نائم هو الآن بجوار القبلة ؟ ألن يستيقظ من نعشه ثانية ؟ أيمزق أكفانه البيضاء وهو يصيح في هذا الطالب الأزهري ، الذي يختنق صوته الآن بحديث الموت والرحيل ، " كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " ، أيصيح فيه : بارك الله فيك يا ولدي ؟ أيستدير نحوي الآن ويسألني بتأكيد ألاَّ أنسى سورة القدر ؟ ..

كانوا يميلون صوب المدافن ، أثاروا بالمداسات غباراً كثيفاً ، علي الأعناق العفيَّة محمول ، لم يتوقف سيره أمام الجرن أو النخلة ، صاح الشيخ " إسماعيل " : وحدووه ، ردُّوا عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

يجأرون بشهادة التوحيد ويشرعون أصابع السبابة في الفراغ ، يعدو النعش كالطائر الخفيف ، تهرول الأقدام الصاعدة للهضبة العالية ، النباتات الشيطانية ، الربوة ، الضريح ، المرأة البرَّاوية وابنتها وماعزها ، " مبروك " الأهبل يشرع عصاه ، رءوس الشواهد ، توقفت أمي معصوبة الرأس بطرحة قديمة سوداء ، حافية القدمين ، تمسك بيدي ، أراه يزيح غطاء الستان ، يطل ، يبتسم ، يلوح لي من بعيد ، وأنا أصيح :
- " مع السلامة يا جدِّي "
وأجهش بالبكاء ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

الحصاوي

في الليالي الماضية كنا نلعب " الحُكشة " ، نتخذ من حوائط الخرابة ـ البيوت التي هجرها أصحابها من أزمان بعيدة ، مرداً للكرة المصنوعة من جورب الحذاء ، وكان هو يصيح بأعلى صوته :

ـ " ترنيزة "

ونجيبه ونحن نشرع مضاربنا في الهواء علي البعد ، بصوتٍ جماعي :

ـ " بحر الجيزة "

وتكون الكرة آنئذ تلمس حافة كومة الرمال الصغيرة أمام مضربه القابض عليه ، متهيئاً لقذفها بكل القوَّة ، ويرد علينا بعلو صوته متسائلاً :

ـ " وإن عدَّتْ ؟ "

فنجأر بصوتنا الجماعي مرددين بفارغ بال :

ـ " عنها ما ردَّت "

عندئذ يقول :

ـ " كحكوح "

وهو يطيح بها بمضربه بكل قوته ، فتعلو فوق رءوسنا ، نتلقفها بهوج صبياني بمضاربنا ، ويصير جوابنا عليه مشتتاً :

ـ " خذها ورُوح "

نقتتل عليها ، وهي تتقاذف بين مضاربنا المصنوعة من أفرع الأشجار ، يبغي فريقي الوصول بها إلي " المرد " الذي هو حائط الخرابة ..

ولأنه أكبرنا ، ولأنه " العريف " في كتَّاب سيدنا الشيخ " إسماعيل " ، وددتُ أن أسأله لكنني نسيت ، عن " الترنيزة " و " بحر الجيزة " و هذا " الكحكوح " ؟! ..

ولأنه كان أسرعنا عدواً خلف الكرة ، رغم اعوجاج قدمه ، حيث يظلع بعرج خفيف ، فقد دعوناه ـ دون خلاف ـ بـ " الحصاوي " .. تعال يا حصاوي .. روح يا حصاوي .. نلعب يا حصاوي ..

قال الولد الذي دعوناه بالحصاوي :

ـ " من لا يطوح يديه في الهواء مثلي .. سينبت (الحبن) في كفَّيه "

كانت أيدينا لحظتها مخضبة بالحنَّاء ، قابضة علي ذلك العجين داكن الخُضرة برائحته النفَّاذة كي لا يفلت منها ، ننتظر إصباح الصباح حتى يجف بقوام خشن ، فنزيله بالماء والصابون ، ونتأمل آنئذ كفوفنا الوردية بلون الشفق عند الغروب .. فسألناه لأنه أكبرنا :

ـ " ما هو (الحبن) ؟ "

قال :

ـ " إنها الدمامل والبثور والأورام "

خفنا ، طوحنا أيدينا في الهواء ، لكننا نسينا الأمر بعد حين ونحن نرقب البنات ، كنَّ ما زلن يعزقن علي ظهر طشت الغسيل ويغنين :

" الحلو خطب والعويل إدَّراه

ما أخدتها يا للي أنت قد فلوسها

ما أخدتها والندل واقف ما قدر يحوشها

قم يا عويل من مجلس الرجال "

وتحزمت البنت " زينب " الشقيَّة ورقصت عندما رددن :

" حتى الرجل الكبير

زي العقرب تحت الزير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

www.alkottob.com

وأنا وأنت ع السرير
علبة ملبن تكفيني "
الحصاوي الذي عرفته يمتطي حمارهم الحرون ، ويرمح به بعدو سريع صوب التلال ، محتضناً رقبته بساعديه ولا يسقط أبداً .. كفَّ الآن عن الصراخ واللعب والجري بعرجه الخفيف ، لمحته يحدق في " زينب " التي تهز وسطها وتداري عينيها بساعدها ..
ولمَّا زفقنا العريس " البلكسي " علي عروسه " بدرية " تحسرنا نحن المتاعيس وآثرنا الانصراف ، لكنَّه ظلَّ متسمراً يرنو محدقاً في الملاط الأبيض لواجهة الدار :
" عريس يدخن الجوزة أمام عروسه .. وسبع قابض علي سيف مشهراً إيَّاه في الوجوه .. وبخط متعرج مكتوب (مبروك يا عريس) .."
قال :
ـ " لماذا لا نلعب ؟ "
قلت :
ـ " نلعب "
قال :
ـ " اتبعوني "
عند الخرابة توقفنا نحن الأولاد والبنات ، قال :
ـ " نلعب عروس وعريس "
لأنه أكبرنا صمتنا ، كان سكوتنا رضا .. قال :
ـ " زينب هي العروس "
نظرنا لزينب الصغيرة الشقيَّة ، تلونت ملامحها السمراء الجميلة ، واهتز قدها النحيف ، ونكست عينيها البدويتان الساحرتين .. فصاحت البنات بصوت واحد :
ـ " زينب هي العروس
زينب هي العروس ..
لأول مرَّة أراها خجولة ، منكسة الرأس ، لا ترد .. ، توالت علي رأسي صور ، والحصاوي يصحبني في القيلولة ، عندما يسكن الفلاَّحون في عز الظهر تحت ظلال الأشجار ، نرتقي شجرة الجميز العتيقة بحذاء الترعة ، نتقافز بين أفرعها ، نقطف ثمراتها مشقوقة البطون بالموس الحاد ، حلوة المذاق ، ثم نركن للصمت والسكون قاطعين النفس ، عندما نلمح البنات بالقرب من الترعة ، ينتهزن فرصة انقطاع الرجل الماشية في لهيب الظهر ، يغريهن الصمت ويختلسن النظرات صوب الطريق ، يخلعن ملابسهن بين أعواد الذرة ، ويرمين بأنفسهن عرايا في الماء الجاري ، يبلبطن عند الحافة في نشوة لحظية ، لا يتركن برودة الماء المحببة إلاَّ عندما يلمحن شبح إنسي يدنو من بعيد ، فيجرين بهرولة عجولة ، يرتدين ملابسهن وهن يتوارين خجلاً بين أعواد البذرة ..
كنَّا ما زلنا بين الأفرع نستحلب الثمرات في أفواهنا عندما قال الحصاوي :
ـ " زينب جميلة "
وكنت لا أشاركه ذلك الرأي ، فقلت :
ـ " عايدة مدملكة الجسم .. بيضاء الوجه .. هي الأجمل "
لكنه قال بإصرار :
ـ " زينب وبس .. ألا ترى (ديودها) ؟ "
ولمَّا استوضحته عن معنى (ديودها) هذه .. قال :
ـ " يا غبي ألا ترى نهديها "
فرأيت نهديها كثمرتين فجتين ..
خرجت من شرودي علي صوته يقول وهو يشير نحوي :
ـ " عبده هو العريس "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

فصاح الأولاد جميعاً في صوت واحد :
ـ " علي هو العريس
علي هو العريس ..
تلعثمت ، أردت أن أرفض ، نظرت لوجه زينب في غبشة ضوء القمر الفضي ، بحثت عن عايدة بينهن ، لم أجدها ..
جذبوا زينب من يدها وأجلسوها بجواري علي حائط قصير محطم ، غنين لنا ، رقصن .. أمَّا الأولاد فقد اصطفوا صفَّاً واحداً ومالوا بظهورهم ، وهم يصفقون ويرددون بغناء منتظم :
" وعلي أبو مردود .. الشورة عليه
وعلي أبو مردود .. الشورة عليه .. "
وخجلت أن أسأله وأنا العريس عن معنى (أبو مردود) ! ، ولماذا (المشورة لـه) ! هو بالذات .. ولم أسأله ..
قال الحصاوي لي :
ـ " هيَّا إلي البيت "
نهضت أنا وزينب وهم حولنا يصفقون ، دخلنا بالزفَّة الخرابة ، تعثرنا بالأوراق القديمة وأكوام الزبالة والأتربة ، وطالت أنوفنا رائحة العطن والمخلفات الآدمية .. وقفنا .. حلَّ صمتٌ ثقيل وران علينا ، قطعه الحصاوي :
ـ " هيَّا "
حدقت في وجهه مستفسراً ، قال :
ـ " مثل العروس والعريس "
نظرت لوجوههم استنجد بهم ، كانوا صامتين ، وعرفت أن سكوتهم رضا ..
متى طرحوها أرضاً ؟ ، كيف جذبوا جلبابها فانحسر عنها ؟ ، عرُّوا ساقيها النحيلتين وبان سروالها الواسع .. صرخ الحصاوي بعلو صوته ..
طفقت أعدو ، جروا خلفي ، تفرقوا ، ظنُّوا الظنون بالصرخة المخيفة ، أسرعنا عدواً لم يتحرك من موضعه ، خلفناه في الخرابة ..
عند بيت العريس كان المدعوون قد انفضُّوا ، الباب موصد ، النور خافت يبص من خصاص النافذة ، لاشك أن البلكسي يمتطي بدرية الآن ..
انجلى القمر وبان نوره ..
قلت لنفسي : لم يرجع الحصاوي معنا ، ولم أسأله عن معنى (أبو مردود) .. لماذا لا أسأله ؟
طفقت عائداً للخرابة ، وقد انداحت الصور في رأسي مرَّة أخرى ، الخرابة صامتة وأنا أدخلها بوجل ، يعلو دبيب قلبي من الخوف ..
هناك .. كان الحصاوي مستلقياً بحذاء الحائط ، مريحاً رجله المعوجة عليه ..
وكانت هي .. زينب .. بجانبه عارية الساقين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

البـــــداية

(1)

أقبلت علينا تحمل صينية مستديرة عليها أكواب الشاي الصغيرة ، مالت بقوامها فارتمى ثدياها أمامها وأزاحا الثوب لأسفل ، نظرت إلينا ، وابتسمت وهي تقول :

ـ " مرحباً "

فردد زوجها العجوز أيضاً :

ـ مرحباً "

وحملت يده المرتعشة الأكواب إلينا ..

استدارت هي لتجلس بعيداً في صحن الدار ، فحملقنا في ردفيها ..

قال " حسونة " للرجل العجوز وهو يغمز بعينه نحوها ويلكزه بيده :

ـ " صبيَّة .. وأنت كالديك الرومي في شهر العسل "

انتشى العجوز ، وضحك فبانت لثته الخاوية ، ورشف الشاي ..

أبصرتها تبتسم أيضاً ، ثم نظرت في عيني وقالت :

ـ " أتريد قطعة سكر للشاي ؟ "

قلت :

ـ " لا .. شكراً "

وتذوقت طعم الشاي المر الأسود .. مال " حسونة " عليه هامساً :

ـ " لا تهرب من كلامي .. لازما تكسر عينيها من الأول "

عبثت أصابعي المتوترة بخيوط الحصير لجرأته ، فانسكب كوب الشاي ، وتشاءمت ، لكنها نهضت مسرعة بكوب ماء تزيل أثاره ، وتبتسم وتقول :

ـ " فرج .. وقوع الشاي فرج "

وهي تميل وتنثني وتهاجمنا بأنوثتها الطاغية ، لم أرد ، وغمرني عرق غزير مخجل ، نهضت واقفاً وقلت :

ـ " أستأذن "

قهقه " حسونة " وأحاط خصر الرجل بساعده ، وسأله :/

ـ " أمك عجوز ولاَّ صبيَّة ؟ "

فجذبه الرجل محاولاً تبيان قوته ومن ثم فحولته :

ـ " صبيَّة يا ولد "

لكن يديه الضعيفتين خانتاه ..

ومضيت تاركاً " حسونة " يهمس في أذنه .

(2)

لكزني " حسونة " في كتفي وهمس :

ـ " سمراء هي .. بشرتها ناعمة .. ملساء "

لكنني حدقت في غبشة الضوء الفضي للقمر البعيد .. استطرد قائلاً :

ـ " هي لي .. ثم هي لك .. هي لنا "

رأيت الأكواخ متناثرة بعشوائية تحت سفح التلال القابعة في الليل كأشباح أزلية ، كانت ضخمة وأسطورية ، وكنت أدرك أن الرجل العجوز هناك ، عند الأرض المنبسطة مع الرجال الذين تحلقوا حول اللهب ، يتسامرون ويشربون ، أراهم علي البعد ، فلا أدرك ملامحهم ولا أسمع همسهم بين الضحكات الصاخبة ..

قال " حسونة " بنبرة واثقة :

ـ " هي تعرف .. ستأتي معي .. ألم ترها وهي تبتسم ؟ .. ألم تفهم ؟ "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

أحسستُ أن رأسي معوج ، وأن أفكاري قد أصيبت بتشوهات كئيبة ، تفصدت القطرات الساخنة من جسدي ، بللت سراويلي .. أعرف أن الرجل العجوز مع الرجال ، أخالهم يرصدونني وينتظرون .. فقط ينتظرون .. سيطوفون بي النجع عارياً كما ولدتني أمِّي .. قال " حسونة " بيأس:

ـ " زوجها مع الرجال .. لن يعود إلاَّ ثملاً في نهاية الليل .. إنني أعرف .. لا تضيع الفرصة .. انطق .. تحرك "

قلت :

ـ " لا "

تكورت بجوار الجدار ورأسي ملتهب ، القمر البعيد مخنوق الضوء في ركن السماء ، الرجال يثرثرون ، يضحكون ..

قلت لنفسي :

ـ " لن انتظر "

وأنا أراها تلحق به ، ويتواريان خلف التلال .

(3)

حدقت في غبشة الضوء الفضِّي للقمر البعيد ، عندما رأيته مقبلاً ..

كيف واتت هذا الحسونة الشجاعة ؟ ، أهي المرأة المجربة المومس ؟ ، رائحتها تفوح وتملأ النجع ..

قهقه في ضحك مكتوم ، تساقطت ضحكاته بعضها فوق بعض ، وهو يهمس :

ـ " ألم أقل لك .. سمراء .. بشرتها ناعمة ملساء "

تبينت أن الأكواخ قد صارت أكواماً ترابية تحت سطح التلال ، كأشباح مهزومة علي الأرض المنبسطة ، والرجل العجوز خلته كتيس هرم يتعثر بين أفراد القطيع ، ما زلنا في بداية أعمارنا ، لم نكبر بعد لنشارك الرجال السهر والشرب والحديث العاري ، لكن حسونة أصر ، هاهو يفعل ، جذبني من يدي في غبشة الضوء متجها صوب قعدة الرجال ، ومال علي أذني يثيرني :

ـ " كانت تبتسم وتشهق .. لم تخطر أنت علي بالنا مطلقاً "

(4)

ألسنة اللهب تتراقص ذؤاباتها .

كانوا يتسامرون ، يشربون ، يسعلون ، والدخَّان الأزرق يلف المكان ، الرجل العجوز يدخن ويدخن ويثمل ، رأسه معوج ، قهقه حتى سال لعابه عندما قال له " حسونة " :

ـ " ضع الوسادة تحت ردفيها ولا تتركها .. لن ترفع عينها أمامك بعد هذه الليلة "

دخن العجوز وسعل طويلاً حتى جحظت عيناه ، سال لعابه علي شدقيه ، شهق وسقط علي جانبه وقطع النفس ..

تفزع الرجال وراحوا يقلبونه ، هرول بعضهم نحو الأكواخ ساخطاً :

ـ " أفسد العجوز القعدة .. وأنت يا حسُّونة من أشرت عليه بالمجيء .. عليك اللعنة "

تحسست جسده بخوف ، كان في غيبوبة ويتنفس ببطء ..

أسندته علي كتفي بمساعدة حسونة ، راح يخطو بصعوبة ، كانت الأكواخ متناثرة بعشوائية عند السفح ، والقمر في سرَّة السماء ، كانت رأسي قائمة وأفكاري قد تعافت ، ونسمات آخر الليل تضرب جبهتي المعروقة بقطرات باردة .. لمَّا وصلنا أمام باب كوخه ، تركني حسونة هارباً بعد أن غمز لي بعينه ، طرقت الباب بوجل فطالعتني بعنفوان شبابها ، تناولت ذراعه الآخر علي كتفها وهي تسخر :

ـ " عملت إيه يا أهبل ؟ "

كان غائباً وتائهاً ، وسقط من أيدينا مكوماً علي الفراش ، وغاب في نوم ثقيل ..

تأهبت للخروج ، لكن المرأة المجربة أمسكت بيدي وهي تبتسم وتهمس :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

ـ " رايح فين ؟ .. انتظر "
تلعثمت ، ثأثأت وأنا أتساءل :
ـ " ليه ؟ "
كتمت ضحكتها الفاضحة من سؤالي ، وقالت بغنج مهموس :
ـ " تشرب شاي من يدي .. كوبك وقع ع الحصيرة المرة اللي فاتت "
غمرني عرق غزير ، ودبيب قلبي يندفع مارقاً في كل عروقي ، والخاطر السئ يتجسَّد في ناظري برؤى ناعمة وملساء ، وأنا أحدق في الرجل المكوَّم أمامي .. وأتأهب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

الميـاه الضحـلة

الصبح

تمضي مع الصبح ، والشمس الصغيرة كانت ومـا زالت فـي الأعـالي ، ترمـي بـوهن الشعاع ، الخضرة الشاسعة مروج تمتد حتى آخر الشوف ، الجو مـا زال يحمل نسيماً رطباً ، معبقاً بأنفـاس الشتاء القصير الفائت ، حقول البرسيم تحـاذي الطريـق ، نوارهـا الأبيض فـي آخر الموسم يتبرقش بأزهار صفراء وزرقاء فاقعة للقريلاً والحشـائش الأخرى الغريبـة ، تتنـافس وتتزاحم وتتدافع علي الأرض والطقس ، قبل أن تتوارى بهزال خجول صوب الجفاف .

فـي عينيهـا بـدا وجـه الأرض محببـاً ، سطحها المجعد بالمدر والقلاقل ، بالنبت ، بـالحيوات الصـغيرة والكبيـرة ، التـي تـدب علـي السطح أو بـالجوف ، التـي تقتـنص قوتهـا فـي تناسب محسوب تحت عين الطبيعة المتزنة .. تبدو في عينيها كجلد " صابر " المجعد بقشف الكد .

ابتسمت " هنية " للخاطرة التي طافت برأسها ، كانت ما زالت تمضي صوب الترعة بجلبابها الأسود البالي ، ، المرتق ، المليء بالثقوب ، علي اللحم مباشرة ، عيناها علي فلذة كبدها " سعد " ، وكان الولد الصغير يمضي خلفها ، يسبقها تارةً أو يتـأخر عنهـا تـارةً أخرى ، يلتقط حجرتاً صغيراً ، يقذف بـه كلبـاً ضـالاً يتشمم بخبث عند حافة الترعة ، تلتفت إليـه وتنـهره ، تحثه علي الإسراع خلفها ، وهـي تداري بسمتها عن شقاوة تراهـا فـي عينيـه ، تتبـادل تحيـة الصباح مع امرأة تجمع الروث في إنـاء صدئ قديم فوق رأسها ، كي تصنع منـه وقوداً جافاً ، يصهلل بوهج في جوف الكوانين ، يبدد العتمة السوداء الرطبة بالدور ، و " سعد " لا يكف ، يجري خلف حمار أشرأب بعنقه واستطالت أذناه وأطلق نـهيقه العالي وهو يهرول خلف حمارة تبعثر علي ظهرها " رمروم " البرسيم ..

حدجت " هنية " الترعة الطويلـة بعينـين خبيـرتين ، أيـام الجفـاف والتحـاريق تلقي بظلالهـا ، الماء الضحل يستوي عند القاع كمرآة بلوريـة سـاكنة ، يميـل للاخضـرار ، يبـين القـاع الطينـي من خلال الماء الرائـق أسود وقاتمـاً ، المحـار الصـغير والقواقـع الحلزونيـة والقائمـة ، تعـانق سوق البشنين والطحالب الخضـراء والسمار ، تقل أو تتكـاثف علـي حـواف البـاطن الرخـو أو الجسر المتعرج المجدور بالشقوق ، وتنبهت لــ " سعد " بلهفـة ، كـان منحنيـاً وهـو يمضـي بحذر علـي أطراف أصابعه ، يحنـي جذعـه ويمـد أناملـه بتـؤدة ، يمسك بـذيل حشـرة الرعـاش الأحمر ، يصيح مـهللاً ومتأملاً أجنحته الغشائية فضية اللمعة .. تبتسم :

- " كفاية يا سعد بقى "

فيتـرك الرعـاش ليطيـر مـرَّة أخـرى ، ويعـدو أمامـهـا علـي الشـاطئ ، ينعطـف بجـوار الحافـة ، يقطـف نـورة نبـات سرخسـي أوراقـه شـوكية وعريضـة مشرشـرة الحافـة ، يزيـل شـوك كأسـها بحذر ، يفرك عنقهـا بين كفيـه الصـغيرتين تتباعد زهراتهـا الخيطيـة الطويلـة وتبين قواعدهـا لذيذة الطعم ، يصيح :

" آدي الفرخه .. وآدي الديك .. آدي عذاب المماليك "

الديك نورة حمراء والفرخة نورة صفراء ، تسأل نفسها ولا مجيب ، أهكذا عذاب المماليك ؟ ، من هم ؟ ، أهم النـاس الذين يمضي إليهم " صابر" في البلد البعيد ، يعمل عندهم ثم يعود ؟ ، سمعته يلعنهم مرَّة وهو يقول " لولا الحاجة ما رحت " ، تذكرت أنه قال مرةً " كلهـم مماليك .. اللـي حكموا أهالينـا اللـي مـاتوا .. واللـي أعمـل عنـدهم النـهـارده .. مـا فـيش فـرق " ، لكنـهـا كثيراً ما كانت تغني لـ " سعد " :

" حبيبي مملوك صغير وجميل "

تتباعد قواعد الزهرات في النورة ، الدوران السريع ، العذاب المحبب لسعد ، انتزاع البتلات ، التقاط حبَّات القاعدة ، التلذذ في جوف الفم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

بجانب جدار مصلَّى قديم ، كانت " هنيَّة " واقفة بجوارها " سعد " ، أحزمت خصرها النحيل بحزامها ، برزت أردافها الممتلئة ، رمقت في القاع الضحل سرباً من الأسماك يمضي انسيابياً ، إغراء الصيد الوفير . إوز أبيض كبير يأتي من البعيد ، يصير قرب الأرض ويمد رقابه البيضاء الطويلة ، يضرب الهواء بأجنحته الثقيلة ، يثير الغبار ، يرتطم بسطح الماء الضحل ، يصيح بزعيق مبهج ، ويمد المناقير البرتقالية المبططة ، ويجوس بها في الماء ..
أقبلت نسوة أخريات .. عائشة .. فاطمة .. ظريفة .. تجمعن ، معهن أولاد وبنات صغار في عمر " سعد " ، كأنهن علي موعد بلا ميعاد ، تبادلن تحية الصباح مع " هنيَّة " ، لغط وضحك وهن ينمنمن ويتغامزن بأقوال تحمر لها الوجوه ، اختلطت أصواتهن بأصوات ذكور الضفادع في " روبات " الماء والتي تنق بخشونة ، وتتواعد عند اللقاء والتزاوج :
" الصبح نقتل الغراب .. الصبح نقتل الغراب " ..
ولمَّا يأتي الصباح يهربن فزعاً :
" إلي الشقوق يا علوق .. إلي الشقوق يا علوق " ..
والغراب ينعق فوق المدر الجافة ، ويحلق باحثاً عنها عند الحواف .
انسلتْ أمشاط كبيرة فارة صوب البشنين الأخضر لمَّا خطتْ " هنيَّة " مع النسوة اللائي صمتن وحبسن الأنفاس علي الأحجار البيضاء النازلة من المصلَّى إلي الماء ، لمستْ قدماها برودة الماء ، بكفيها العريضتين رشقتْ الأخريات برذاذ الماء ، تجاوبن بضحكات كتومة . الخطو بطئ وهادئ دون صوت ، الأيدي تجوس الماء ، تعبث بالجحور أسفل الحشائش ، أمسكتْ قرموطاً من رأسه ، لمحتْ " سعد " يحمل القوطة الصغيرة ويرنو إليها بصبر نافد ، ألقتْ به إليه ، ابتسمت وتمتمتْ : " حبيبي مملوك صغير وجميل "
يقذفن بأمشاط السمك وقراميطه إلي الشاطئ إلي الشاطئ ، لامعة وحيوية هنا وهناك . يتقافز الأطفال فرحاً ، يلتقطونها في حب ومرح . " سعد " يجمع سمكاته ، في كل مرَّة يخبط جبهته بكفه سعيداً ، يضرب ركبته عدَّة مرَّات ، يقفز بحركة واحدة خلف كل سمكة تلقيها أمه من القاع إلي الشاطئ ..
" هنيَّة " مع النسوة ، الماء خلفن الماء روبة بنية داكنة ، التصقت أثوابهن القديمة بأجسادهن ، لمعتْ تحت بريق الشمس ، برزت التضاريس الدقيقة ، انتفختْ الثنايا بالهواء والماء ..
قطٌ ماكرٌ يلتقط سمكة قبل وصولها لسعد . يجري " سعد " خلفه . يقفز القط أعلى حظيرة من الطوب اللبن ، فوق سقف من أفلاق النخيل ، يقف ويرنو في مأمن لسعد . غضبة " سعد " حجر طوحه ناحيته ولم يصبه ، فصاح به :
ـ " يا ابن الكلب "
ويعود لـ " هنيَّة " الملهوفة عليه ، تبحث عنه بعينين قلقتين بين الأطفال .
تمضي النسوة في الترعة ، اقتربنَّ من جرف كبير بالجسر ، تنزل منه المواشي كي تشرب أو تستحم بالماء ، شاهدن " عويس " . شاب قوي مفتول العضل ، ببشرة قمحية لوحتها الشمس ، وجبهة عريضة تحت الطاقية . يعرفن طول لسانه وقلة أدبه . يمسك مقود جاموسته كي تشرب ، وهي تنفخ الماء بهواء منخاريها الواسعتين فتبين الدوائر المتداخلة ، تتذوق الماء بلسانها الأحمر . يمد " عويس " سبابته محذراً صوب النسوة : ألاَّ يتقدمن .. أن يحترمن الجاموسة حتى تشرب ، كي لا يفسدن عليها الماء فتعافه . تشرب الجاموسة بصرير واضح بين أسنانها . نفخ " عويس " الهواء بين شفتيه مصفراً لها يحثها ، عينه علي النسوة اللائي توقفن علي مضض . شربت الجاموسة . لكنه راح يحثُّها مرَّةً أخرى بالصفير . ضاقت صدور النسوة الغاضبات منه . بأطراف أظافره هرش مؤخرة رأسه مشاغباً ، دفع طاقيته للأمام فغطَّتْ جبهته حتى حافتي حاجبيه الكثيفتين ، رفعهما لأعلى وأنزلهما مرتين . غاصت النسوة في الماء وهن يكركرن بالضحك . رفعت " هنيَّة " قبضة يدها في وجهه ، أمسكت معصمها بيدها الأخرى ، هزتها بحركة مخزية :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

ـ " خذ يا عويس "
ازدادتْ القهقهة العالية . ماج الماء الضحل ، تضارب مع الحافة بعنف . النسوة والصخب والضحك العابث . فرَّتْ الأسماك أمام الضجيج .
بضحكة عالية مبتورة ، مضى " عويس " يجر جاموسته ، توقف فجأة ينهر " سعد " الذي كان ممسكاً بذيل الجاموسة :
ـ " يا ابن ... "

***

العصر

كانت الشمس الصغيرة قد انحدرتْ من فوق الدار الواطئ ، ارتفعت سحابة الدخَّان ، استعر جوف " الكانون " بأقراص الروث . تربعت " هنيَّة " أمامه تشوي السمك . ألسنة اللهب تبص من تحت الصاج الأسود المستوي ، تتراقص فتبدد عتمة الدار ورطوبتها . " سعد " يركع علي ركبتيه ، يزوم ، يدفع أمامه الوابور .. قطعة الطين الجاف بعجلاتها الأربع المشبوكة بأعواد الحطب .. علي حافة حجر المصلَّى الأملس تفنن في صنعه ، يدفعه أمامه ، يزوم محاكياً صوت الوابور المتحشرج بين الشفتين الورديتين المطبقتين ، يتوقف ، يقترب من الكانون ، يرنو لأمه . تبتسم له :
ـ " عاوز سمك ؟ "
ـ " لا "
ـ " أمَّال عاوز إيه ؟ "
يرفع الوابور بحرص في حجر جلبابه :
ـ " عاوز أكون سوَّاق يا أماه "
تضحك ، تقلب السمكات في الدقيق الخشن ، ترصُّه علي الصاج الأسود المهبب ، تقلبه حتى النضج . سمعتْ همهمة " صابر " آتية من عند البوابة الواسعة .
ـ " أبوك جه يا سعد "
أقبل " صابر " مكدوداً ، أنزل الفأس والمقطف وركنهما جانباً . هرول " سعد " بعد أن نحَّى وابوره ، شبَّ متعلقاً برقبة أبيه :
" أبويا جه .. أبويا جه "
يضم ساقيه النحيلتين حول خصر أبيه ، يهمس في أذنه :
ـ " أمي جابت سمك كثير يا با "
يقبله " صابر في شفتيه . يجفل " سعد " من خشونة اللحية والشارب . يشم " صابر الرائحة التي عبقت الصالة بافتعال دافعاً بها لصدره ، ويصيح ببهجة . يفرح " سعد " ، يهز يديه الصغيرتين حول عنق أبيه . يؤرجحه " صابر " ، يلفه تحت إبطه . يقبلا علي " هنيَّة " التي تورد خداها في وهج الكانون . القراميط تلعب وسط الدقيق . رائحة الشواء نافذة .

***

الليل

أطبقتْ الظلمة ، دثرتْ الكون بالثوب الأسود القديم الذي لا يبلى أبداً ، المرتق بنجوم متلألئة ، تبص بعيونها من السماء العالية . كركرة الجوزة بين يدي " صابر " تجرح صمت الليل . " سعد " استلقى نائماً علي حافة الفرن ، بسمة ملائكية تظلل ملمحه . يحتضن الوابور الطيني . تحمله " هنيَّة " بحرص وهي تهمس لصابر :
ـ " عاوز يكون سوَّاق "
يتحسس " صابر " الجسد اللدن . تصطدم أنفاسها بمنابت الشعر في صدره ، تخاله كوجه الأرض المجعدة بالمدر والقلاقل والنبت والحيوات الكثيرة . يحتويها بساعديه القويتين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

جمرات النار ما زالت تتوهج بالموقد ، تفحمت بعد حين ، صارتْ رماداً . الجوزة ترتكن هامدة علي الحائط . اصطدمتْ عيناها بسقف البوص والقش الموصوم بسواد الرواكي والمواقد في الأيام والليالي الطويلة . مضتْ أيام وجاءتْ أخرى . الشتاء ما زال يخلف ذيوله . نسمة باردة تهبُّ ، تشعر " بهيَّة " بها عبر الكوَّة الصغيرة المرتفعة بالجدار . تراقص ضوء اللمبة الباهت . أصاخت السمع لذئب يعوي بعيداً في البراري خلف التلال . نباح كلاب متقطع . مواء قطط كثيرة تتصارع وتتعارك فوق السقف . كانت تغفو وهي تلمح فأراً ينسل من الكوَّة ماضياً صوب فتحة الفرن .

***

الصبح

الضوء الفضِّي يخترق الكوَّة الصغيرة ، عمود الضوء الاسطواني يشق العتمة . المصباح خبا ضوءه ، اختفى بزجاجته المصقولة تحت الحلقات الرمادية المعتمة .
كان " صابر " يمضي صوب الترعة ، ينض ثوبه في صحن المصلَّى الطينية . أقبل آخرون . دارى عورته بكفِّه ، نزل فوق الحجارة الملساء ، تقرفص في الماء الضحل وأغمض عينيه ، وضع أصابعه في أذنيه وأنفه ، بسمل وهو يحاول أن يغطس برأسه في الماء . ضنَّ الماء الضحل .
كانت " هنيَّة " آنئذ تتمطَّى ، تسوي شعرها المهوش . " سعد " يتثاءب ماسحاً عينيه ، باحثاً بلهفة عن وابوره الطيني الصغير . تحتويه " هنيَّة " في حضنها الدافئ ، تقبله ، تناوله الوابور . فيهمس لها وهو يتثاءب :
ـ " نفسي أكون سوَّاق يا أماه " .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

عيون الدهشة والحيرة

(1)

أذهب إلي حيث البئر . الحفرة واسعة الفوهة ، كوحش كاسر تفتح فمها نحو السماء ، عميقة هناك وراسخة في المسطح الرملي الفسيح البعيد . بقدمي النحيلتين أسوخ في الرمال وأتعثر في أمواجها الناعمة . يهبط الدرب منحدراً . بأسناني أرفع ذيل جلبابي ، أتفادى أشواك العاقول القابعة كأنصال دقيقة وحادة وسامة . عندما أقف ، تتشكل الحيرة والدهشة في علامات استفهامية واضحة ؟ .. إلي أين تقودني قدميَّ ؟ ..

كأنني لا أعرف أنني أحمل الدلو المصنوع من زنك مطفأ اللمعة ، أنني أمضي إلي البئر ، أنني أريد الماء .. الماء .

كانت مياه البئر رقراقة صافية كوجه السماء التي تظلل رأسي ، أبدية المستقر هناك ، ليس أمامي من مفر ، تبدو المياه كصفحة مرآة لامعة مصقولة الوجه ، أفزعها وأبدد سكونها بقدميّ الحافيتين ، أحس البرودة المحببة تسري وتدغدغ بدني بدبيب منعش . تفزع " الدحليب " ، صغير الضفادع بأذنابه الطويلة ، تفرق مبتعداً في الماء ، توارى بين الحشائش الكثيفة عند الحافة . لا أسمع نقيق الضفادع المألوف ، تتبعثر أفكاري الشاردة علي الصفحة الصافية ، علامات وعلامات وعلامات استفهامية كبرى ؟ .. وما من مجيب .

ماذا لو حفرنا بقاع البئر ؟ .. نظل نحفر .. نظل ونظل .. أين سننتهي ؟ إلي أين نصل ؟ هل هناك حياة تحت الأرض ؟ أين ممالك الجان الأحمر أو حتى الأسود ؟ ..

كانت أمي تقص لي في المساء ، ولطالما حلقتُ معها في ممالك بعيدة ، وأنا أغفو بين اليقظة والمنام ، وأنزل معها تحت الأرض السابعة ، أرى المدن والقصور والخلق والأعاجيب ، يجنح معها الخيال ويرفرف فوق بحار بلا شطآن .

تشدني عند البئر رؤية عصفور الجنَّة ، يتبختر مختالاً عند الحافة ، جميلاً ورشيقاً بعينيه المشروطة المكحلة بشريط أسود داكن تحوطه هالة برتقالية ، ريشه أخضر ناعم بلون الجنَّة ، يلتقط قطرات الماء بمناقيره الطويلة ، يطير ، يصدح ، يهوي هناك حيث أعشاشه الكائنة أعلى الحفرة .

كيف يا عصفوري الحبيب تترك جنَّة عدن وتأتي للعيش هنا ؟

أهذه جنَّة عدن وأنا لا أدري ؟ أخبرني .. هل تحب هذا الكثيب الرملي الأصفر الباهت المسطح ؟ هل تحبني كما أحبك ؟ .. دوماً أراك في ربيع الأيام وأنت تحلق سعيداً عند حواف هذه الرمال ، حيث زروع أبي وأعمامي وأخوالي وأهل قريتي الصغيرة مبعثرة البيوت . لكن أخبرني .. أين تذهب في الخريف العاصف فلا أراك ؟ أين تمضي وتختفي ؟ .. عندما تصرخ الرياح وتعول في زعابيب رملية متربة وثائرة ، يحلو لي أن أدفع العجلات المصنوعة من حطب الذرة في طريق الرياح ، تعدو فأعدو خلفها ، الرمال تضرب ساقيّ العاريتين ولا أقع أرضاً ، تأخذ الرياح بالعجلات بعيداً ، تسقط في البئر . عند البئر أبحثُ عنك ، لا أجدك ، آه .. آه .. كم أحبك أيها العصفور الحبيب .

كم طالت وقفتي تلك ؟

صوت أخي " محمود " ينتشلني من لجَّة التأمل عندما يتردد صداه ويأتي من بعيد ، علي عجل أرش وجهي ورقبتي وشعر رأسي بالماء ، أرفع الدلو ، أصعد عائداً .

(2)

علي مدد البصر أراه تحت شجرة التوت ، ألقى فأسه ، أسند ظهره تحت ظلال الأفرع الوارفة للشجرة ، ثمار التوت القرمزية ناضجة وعسلية الطعم . عندما أصل للشجرة ، يواجهني غضب " محمود " وهو يمسك ساعدي بقوَّة :

" لماذا تأخرت عند البئر ؟ .. أهي البنت عائشة ؟ .. أكانت هناك ؟ "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

" أبداً .. أقسم لك .. لم تكن هناك "
يترك ساعدي وهو يقهقه :
" إذن احكي لي ماذا فعلت معها آخر مرَّة "
يحلو له أن يسمعني وأنا أقص عليه عن البنت عائشة ، ونحن نتناول طعام الغداء ، نفرش المنديل المحلاوي المخطط العريض ، نفرد الطعام ونأكل الجبن والبطاطس المقلية والخيار المخلل والسريس والجرجير . نتجرع ماء البئر البارد الزلال من الدلو ، نتجشأ . يسمعني وهو يكتم ضحكاته :
.. كانت عائشة تملأ البلاَّص من البئر ، تدلك قدميها الصغيرتين بحجر بركاني أسود خفيف وكثير الثقوب ، كانتا جميلتين ونظيفتين ، وكانت تغني أغنية شائعة وهي تكشف عن ساقيها ، ترفع جلبابها فأرى فخذيها وكورنيش لباسها الداخلي ، تتملكني رغبة لا حيلة معها ، لا أدري سرها ، ماذا تخفي هذه البنت ؟ . تلمحني " عائشة " ولا تقول شيئاً . أداعبها بالماء . تجذبني من ذراعي . أضمها لصدري . تقبلني وأنا أقودها للركن ، وأرى لحمها المكتنز الأبيض . يدقُّ قلبي بدبيب متصل ، وأنا أبحث عن عورتها بين اللحم الدافئ ، وهي تحثني ، وأنا أتعثر ، وفي صوتي بحَّة وفي صوتها فحيح أفعى ملهوف ..
فاجأني " محمود " وأنا فوقها ، أخذني من يدي ، ربطني بجذع شجرة التوت مع الماعز :
" بنت الملعونة تخدعك .. توقعك في المنكر " ..
بعد الغداء ، يميل " محمود " في اتجاه الهواء ، يتوسد مداسه ، ينام في القيلولة . لكني لا أنام ، وأنا أرى عصافير الجنَّة التي أحبها وهي تصدح محلقة فوق المروج . أطالع الهدهد علي أحد الأفرع ، يهبط للأرض متوتراً ، يمضي ، يهز رأسه بعصبية مورثة ، عليها التاج الملكي القديم منذ عصر سليمان الحكيم ، لمَّا طار ، رأيته بريشه المصفر الباهت وخطوطه السوداء ، خلته ذاهباً للتلال الأثرية ، باحثاً عن أمجاده الغابرة في زمن منصرم وقديم .
أين سليمان ؟ أين بلقيس ؟ .. هذه تلال الفراعين .؟. لا أعرف أسماءهم .. أكانوا في زمن يعقوب أو يوسف الصديق ؟ ..

(3)

يأتي الليل وتعود معه العلامات الاستفهامية الكبرى في تشكيل سرابي يغشى عينيّ .. أين نهاية هذه الأرض الممدودة الراسخة ؟! .
تحرقني رغبة دفينة في السير الطويل في طرق مجهولة ومأمولة الوصول إلي حافة هذه الأرض .. طرق السلامة هي أم طرق الندامة أم طرق الذين يذهبون بلا عودة ؟! .. أين الحافة يا أبي ؟ .
قالت أمي ذات مرَّة :
- " عند الإسكندرية يوجد البحر المالح .. إنه واسع .. أمواجه زرقاء وله شاطئ واحد "
وقالت أمي تحذرني في مرَّة أخرى :
- " عمك الأكبر كان تاجراً .. عندما تشاجر مع أبيك وأعمامك مضى غضوباً .. تركهم وركب البحر .. من يومها لم يعد "
لكنني قلت لأمي :
- " لكن يا أمَّاه تحرقني رغبة المضي علي اليابسة إلي ما لا نهاية "
ابتسمت أمي ، فقلت مؤكداً بإصرار :
- " حتى لو واجهني البحر معترضاً سأركب أمواجه بقممها المتصلة .. أريد أن أعرف يا أمَّاه " .
ويخفق قلبي الصغير في الليل . النجوم آبار مثقوبة في بدن السوداء المجدورة . كان دبيب الأقدام قد خفَّ علي الثرى ، وأدركتُ أنهم هناك علي المصاطب ، وداخل الدور ، يرشفون الشاي الأسود المر من أكواب صغيرة بين الأصابع ، بينما تحتضر الجمرات في الرواكي التي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

لا تخبو ، وبصيص ذؤابات المصابيح الغازية يتألق بصفاء من الزجاجات المصقولة ، تعكسه المرايا الصغيرة المستديرة أمام فتحات الدور المتلاصقة .
" عائشة " معطرة في الليل ، يتضوع أريجها كأزهار الكافور ، تبدو غامضة وجميلة .
في الليل لا أرى سوى العلامات الاستفهامية تقفز مرَّة أخرى وأنا أهمس لها بصوت واثق :
ـ " هيا معي للبئر يا عيشة "
فتقول بصوت فيه رجفة :
ـ " هذه الساعة ؟ .. لا .. أنا خائفة "
ـ " مم تخافين ؟ "
ـ " أخاف أن يأخذنا التوَّاه .. سوف نضل الطريق "
وفي الخلاء الصامت أستنشق أريج أزهار الكافور .
أتخيلها وهي تلتصق بي زجاجة عطر لها غطاء محكم القفل ، أرغب فضه .
وتقول مرَّة أخرى :
ـ " تخيَّل .. وقد أخذنا التوَّاه .. هذا الجان الماكر وتوهنا .. نتوه ونتوه "
قلت لها :
ـ " سنظل نبحث عن الطريق طوال الليل .. في الحقول أو علي الرمال أو المصارف البعيدة أو التلال الموحشة .. لن نتوه .. لن نضل "
قالت :
ـ " وإذا أخذنا للقبور ؟! .. أنا أخاف رائحة الموت "
وتذكرتُ أن قبور الآباء والأجداد هناك ، قبور كثيرة متراصة . نباتات التين الشوكي هناك أكف مفلطحة ذات اخضرار فاتح ، شوكي ، أزهارها ملتفة الأوراق صفراء وفاقعة . أطراف نباتات الآجافا حادة كسكاكين مرشوقة بوجه السماء . رؤوس القبور الأسمنتية الصلبة تعلوها طحالب قاتمة الخضرة ، وأشجار العبل والطرفة متشابكة في كتل كبيرة تهيم أسفل جذوعها زواحف كثيرة من الهوام والسحالي ، تطل بين الحين والحين بأعينها الزجاجية البارزة اللامعة الدقيقة . وأطفال الغجر أنصاف عراة ، أقدامهم جافة وحافية وسوداء ، وجوههم دقيقة مستطيلات الملامح ، يمد الطفل منهم يده :
ـ " صدقة ونور يا عم .. صدقة ونور "
يوم أن وارينا جدِّي التراب ، وابتلع القبر جسده النحيل ، غشيتني العلامات الاستفهامية ، تدفعني للنزول خلفه .. ماذا يحدث في القبر ؟! .. كيف تعذب هذه الأبدان النحيلة البالية ؟! .. قالوا وفيما قالوا : إن عزرائيل يحمل عصا حديدية ضخمة " مرزبَّة" ، يهوي بها علي أجساد العاصين فتهوي في الأرض سبعين ذراعاً .
ويُسالون عن الدين والأب والرب .. ويل للسان يتعثر جوابه عن الإسلام وإبراهيم الخليل والله ربُّ العالمين ..
وألتصق بعائشة في صمت الليل ، تتمزق نفسي بين الخوف والدهشة والوحشة ، وعلي الطريق المؤدي للبئر رأيت التوَّاه .. ذلك الجان الماكر قابعا .. يبتسم بسخرية وينتظر بصبر لا ينفد .

(4)

مشيت كثيراً في الصباح ، أبحث عن حافة ونهاية هذا العالم ، أضحت الرغبة أشلاء ممزقة في النفس المجهدة قصيرة النفس ، التي لا تود المزيد .
مشيتُ ومشيتُ ، قرى كثيرة ، بيوت كثيرة ، بطائح وخيام أعرابية للبدو ..
مشيتُ ومشيتُ .. هدَّني التعب .. سقطتُ .. نمتُ .
لمَّا أفقتُ ، أدركت من جوف الصدر وقلب القلب ، ازدياد شوقي لأمي وأبي ومحمود وعائشة وجرعة ماء من البئر .. وعدتُ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

كان " محمود " بقلب المصرف الصغير الجاف التي تبدو قيعانه كثيرة الشقوق ، يدفع الكريك بباطن قدمه القوية ، يغوص الكريك في الثرى ، يخرج محملة كفه إلي الحافة .. بآلية وصبر ورتابة وتكرار غير ممل يمضي محمود .. يحفر المصرف الصغير .. كأنه فوجئ بي عندما يراني ويسأل :

ـ " أين أنت من الصباح يا مجنون ؟ "

أنظر إليه بلا إجابة .

يقذفني ضائقاً بكتلة من ثرى الحافة :

ـ " تكلم .. قل أي شيء "

يتلجلج لساني مهزوماً :

ـ " كنت ذاهباً للبحر المالح "

ـ " البحر المالح ؟! "

يضحك ملء شدقيه ، يهزُّ كتفيه ، يقول :

ـ " أين هذا البحر أيها المجنون ؟! .. أبعد عن وجهي "

عند التوتة أترك بكرج الشاي علي جمرات الأفرع الخشبية الجافة ، أمضي حاملاً الدلو إلي البئر . كانت عائشة هناك تدلّي قدميها في الماء البارد ، ترفع ثوبها عن ساقين ناعمتين ، تبدو منتشية وهي تبتسم . أملأ الدلو بماء رائق وصاف ، أحمله وأستدير عائداً . كانت تصيح في أثري بدلال :

ـ " دمك ماسخ "

ولا أدري لماذا كنت مهموماً ومحموماً ، والعلامات الاستفهامية تكبر وتغشى عينيَّ بسحابة من الدمع ، وأنا أنقل قدميَّ بصعوبة علي الرمال ، أقاوم السقوط ، تختلط الرؤى بعينيَّ .. عائشة .. عصفوري الحبيب .. هدهد سليمان .. بلاد غريبة لم أرها رغم الحنين ..

تعثرتُ .. سقط دلو الماء من يدي .. سقطتُ ..

بين الإغماءة والإفاقة ، رأيت عائشة تهرول نحوي بثوب أبيض ناصع ، كنت أتمتم بصوت غير مسموع :

ـ " لست مجنوناً يا محمود "

بينما العلامات الاستفهامية تحيط بي وتدثرني بغلالة من الصلب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

حكايات متفرقة

1 - زهرة البانسيه
2 - أوتوبيس
3 - رسالة
4 - هدنة

www.alkottob.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

زهرة البانسيه

ثمَّة رغبة قويَّة وعارمة ..
وددتُ أن أقول لها :
" يا زهرتي .. يا زهرة البانسيه .. إني أحبك .. يا لك من جميلة ! .. لا .. بل جميلة جداً ! "
وكانت الفتاة التي تجلس قبالتي تسهو ساهمة .
الثوب أصفر فاقع ، لون زهرتي المفضلة زهرة البانسيه ، اصفرار رائق ونظيف ، يتوهج كتوهج بتلات الزهرة الخمس ، فوق التخت الأخضر والعنق الريَّان .
نظرت للسماء فأدركتُ أن الشتاء مقبلٌ .
أشعة الشمس لينة ومحببة .
قبالتي تجالس علي البساط الأخضر .
البساط ممتد ، الأزهار الحولية أعود غضة في الأحواض الصغيرة المعدَّة بعناية هندسية ، نبتها الغض أخضر ، مغمضة البراعم بعد ولم تتلون .
ثمَّة رغبة قويَّة وعارمة .
أودُّ أن أرى زهرتي متفتحة الأجفان .
أتكون وريقاتها البتلية صفراء كما أحب أم تخدعني وتكون حمراء أو زرقاء ؟
أيها البرعم مغمض الجفن : ما لون زهرتك .. أقصد زهرتي المحببة ؟
أيتها الأزهار .. البانسيه .. الفيولا تراي كلور .. ثلاثية الألوان .. ما لونك هذا الشتاء ؟
أريدك بالأصفر الفاتح .
علي دروب المماشي البعيدة أرى الناس يمضون ، يثرثرون .
يتنامى لسمعي أصواتهم همهمة .
عصافير النيل الدورية رمادية اللون صغيرة وشقية ، تزقزق دوماً وبلا انقطاع ، لا تكف بين الأعشاب المتزاحمة علي البساط الأخضر .
هل تسمعيني يا ذات الرداء الأصفر ؟
لديَّ رغبة عارمة وقوية في أن أحب .
ماذا يعني البكاء ؟ أأبكي الحياة ؟ ما هذا الحزن ؟ ما هذا الخواء ؟ .
إذا كانت هذه هي الحياة .. فماذا يعني الموت ؟
أين الحب ؟ أنرغب الحياة ونحن مساقون نحو الموت ؟
في المماشي البعيدة أسمعهم يثرثرون بهمهمة ، يمضون فوق أحواض الزهور ، أين العصافير ؟ لا أسمع الزقزقة .. هل تفزعتْ ؟ طارتْ؟ .
شمس الشتاء الصغيرة ضاعت بين تلافيف السحب الهشَّة .
أين أنت أيها البرعم الزهري مغمض الأجفان علي زهرتي المحببة .. زهرة البانسيه ؟
من الذي سحق عنقك ، وحطَّم سبلاتك فوق العشب ؟
من يا فتاتي يا ذات الرداء الأصفر ؟ .. أين أنت ؟
أتمضين ؟ .. أتخافين ؟
السحاب والمطر والبرد والوحل وهذا الضباب الكثيف الذي يغلف كل شيء .. كل شيء .
انتظري .
ثمَّة رغبة قويَّة وعارمة ..
أود أن أقول شيئاً ..
سقطت عيناي علي البرعم الزهري ..
كانت البتلات زرقاء اللون .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

أوتوبيس

تدافعوا صوب الأوتوبيس ، أثارتْ الإطارات غباراً كثيفاً وهي تحتك بالطريق الترابي ، وقبل أن يقف تماماً ، اندفعتُ نحوه ، وحشرتُ نفسي علي مقعد بجوار سيِّدة عجوز .
كانت العجوز تلف نفسها بأردية سوداء ، وكانت تسأل عن المستشفى الأميري ، وكانت تخاف الموت .
الأجساد داخل ممر العربة الضيق تتزاحم وتتلاصق . المحصل يبدو كبهلوان وهو يقفز بين الأجساد والقفف والسلال والحقائب المنتفخة .
فتاة ريفية ، عيناها بنيتان ، وجهها بض ، ممتلئة ، جميلة كحورية غامضة هبطتْ سهوا بين هذا الركام .
الولد الشاب الذي يرتدي سترة الجندية ، يحاول الاقتراب منها والالتصاق بها وهو يتغافل بالنظر من النافذة ..
كأن تيار كهربائي مسها علي حين فجأة فزجرته بعنف .
ولمحتُ الغضب يشتعل في عينيها البنيتين .. شر البلية ما يضحك .. لقد ضحكتُ .
انتبهتْ هي لضحكتي فابتسمت بخجل .
نسمة هواء باردة تمرق من الزجاج المكسور في إطاره المطاطي .
عجلات الأوتوبيس تنهب أرض الطريق الترابية ، يرتفع ويهبط ويرتطم بالمطبَّات . صوت موتور هذا الأوتوبيس الوورد الأمريكي أجش ، متحشرج ، وأعلى رأس السائق مثبت علم معدني صغير بخطوط كثيرة وأنجم أكثر مشطور بكفين يتصفحان بقوة .
المحصل البهلوان يصيح :
" ورق .. ورق "
أمد له يدي بالأجرة .
وينزلق الإيشارب علي الشعر الأسود الفاحم للفتاة ، والمضفر في جديلتين طويلتين .
قالت السيِّدة العجوز وهي تربت علي كفي :
" لا تنس يا ولدي .. الله يسترك .. أن تدلني علي المستشفى الأميري كي أنزل في محطته "
أكدتُ لها :
" حاضر .. حاضر يا أمي "
رحتُ أدسُّ رأسي في جريدة الصباح ، أطالع العناوين البارزة :
" شاب ينتحر بسبب الاكتئاب " .. " امرأة قتلت زوجها " ..
غصة زارتْ حلقي ، وأشباح من الحزن ـ لا أدري بأي معنى ـ طوقتْ أنفاسي المجهدة .. يا لجسدي النحيل الذي اقشعر .. وارتجف .. واهتز أمام هذه النسمات الباردة التي تقتحم الزجاج المكسور .. لا يجدي معها تكوري بالمقعد ..
السيِّدة العجوز التي تخاف الموت تسأل .. لا تكف عن سؤالي :
" هل وصلنا يا ولدي ؟ "
" لا يا أمي "
كانت الفتاة الريفية تنظر لي بمودة ، نهداها يدفعان بثوبها القطيفة الفضفاض للأمام ، تبتسم ، كأن بيني وبينها معرفة سابقة وسر صغير مشترك .
الشاب الذي يرتدي السترة الأميرية ينظر نحوي بغضب ، وهو ينزلق نحو ركن العربة البعيد .
هممتُ بدعوة الفتاة للجلوس بيني وبين العجوز ، التي همَّتْ بسؤالي مرة أخرى عن المستشفى الأميري . فقلتُ لها : لم نصل بعد .
لم أدع الفتاة للجلوس ، تصورت الخاطر السيئ الذي سوف يدور بخلد هاتين العينين الغاضبتين فوق السترة الأميرية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

لا أدري ما الذي دعاني لكي أدس رأسي في الجريدة مرة أخرى .. هل هو الفضول لمعرفة أسباب انتحار الشاب ؟ أو أسباب موت الزوج علي يدي زوجته ؟ .. وكنت أقول لنفسي : كيف طاوعها قلبها ـ وهي الأنثى ـ علي تمزيق جسده ، وتوزيعه بالعدل والقسطاس علي اثنين وعشرين كيساً من النايلون الأسود ؟! ..
صورتها علي الصفحة حزينة ..
أتأمل عينيها اللتين كعيني أي أنثى ..
توقف الأوتوبيس عند أحدى المحطات ..
رفعتُ رأسي ، كانت الفتاة تندفع بثوبها القطيفي ، وتشق بجسدها المتين طريقاً في الزحام ، تابعتها وهي تهم بالنزول من الباب ، ما زالت هناك بسمة ترف علي ثغرها .
نظرات الشاب المراوغة تفيض بحسرة ورغبة ..
عندما تحرك الأوتوبيس ، عادت النسمات الباردة تمرق من الزجاج المكسور .
ربتت العجوز علي يدي وسألتني عن المستشفى الأميري . تذكرتُ وأنا أتطلع من النافذة أن المحطة السابقة التي خلفها الأوتوبيس هي محطتها ، وقفتُ تلقائياً أنادي علي السائق لينزل العجوز التي فاتت محطتها ولم تنزل .. لم يعرني انتباهاً ..
نكستُ رأسي وجلستُ ، ولم أرد علي أي سؤال آخر كانت تسأله العجوز .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

رســـالة

صديقي في بلاد النفط والغربة ، يا من تركتنا لسنوات عدة ..
السنون تمتطي أعمارنا وتمضي ، خطابك ملقى أمامي ، تسألني عن قريتنا .. هل أضيئتْ كسائر القرى بالكهرباء ؟
أقول لك :
عندما تعود ـ لا أدري متى تعود ـ سوف آخذك إلي تلالها السوداء ، كي تقبع معي مقرفصاً ونحدق معاً في أكواخها الطينية ، وقد ارتدتْ غلالة ضوئية باهرة .
لم تعد قريتنا يا صديقي جميلة وساذجة ، أخالها الآن كبنت ريفية دخلتْ المدينة فجأة ولطختْ سحنتها بالأصباغ ، فأثارتْ الضحك والسخرية ، صارتْ صورة مشوهة من البندر ..
أين دروبها المتربة الرملية الواسعة ؟ دورها وفلاحيها ؟ شواهد قبورها التي تعلو أعلى قمة فيها بين شجيرات الجازورينا الكثيفة قاتمة الخضرة ؟
ما زال السؤال الذي قلته لك من قبل ـ لعلك تذكره ـ يدق رأسي :
لماذا دور قريتنا في السفح متناثرة وهشَّة بينما القبور عند القمة ؟!
ولا مجيب !
لقد كنت أحلم ببيت صغير يعلو أعلى قمة فيها ، يتنفس هواءً بارداً ، ولا يرى من صفحة السماء سوى النجوم المتلألئة والتي لا تنجاب . حتى تلك المساحة غير المأهولة المجاورة للتلال السوداء ، كانت تملؤها نباتات الخريزة العصيرية ، والنباتات البرية الأخرى ذات الأزهار الحمراء الباهتة ، وكانت تبدو في الشتاء كبساط ملون وجميل ، لم أعد أره ! .
كنت أضع قدمي في الرمال المبتلة بعد توقف المطر ، أكومها فوق قدمي الصغيرة ، وأبطط الرمل بكفيَّ كي يتماسك ، وأنا أغني :
" يا غراب ابني لي بيت .. وأنا أعملك فطيرة بزيت "
وأسحب قدمي بتؤدة لتترك مكانها بيتاً كبيت الغراب .
لكنه ما يلبث أن يتحطم .
ما زال قلبي الطفولي يطفو بجوانحه كلما مررتُ بمناكبها ، لم يعد البرقع ذو الخرزة الحمراء وعملاته الفضيَّة منصرمة الأزمان يحدثُ صليلاً خافتاً كجرس الحنطور . أين العقال البدوي الذي يثبت الشيلان البيضاء الاستانبولي فوق الرؤوس ؟ حتى طواقي " الكوابرية " بدأت تختفي . ما هذا الجيل الصغير الذي انحصر لهوه ولعبة في لعبة واحدة هي كرة القدم ! .. أين ألعابنا الكثيرة ؟ ..
رحم الله شاعر الربابة " عبد البديع " .. مضى ومضى معه أبو زيد الهلالي سلامة والزناتي خليفة والناعسة .. مضى ومضى معه سهر المصاطب .. بقي لنا هذا الصندوق العجيب المسمى تليفزيون .
تبعثرتْ فرقة أبي شعيشع والطبل البلدي والمزمار وغوازي المنصورة وفاقوس ، راحتْ الفرقة لطي النسيان .. هذا زمن عدوية .
يا صديقي في بلاد النفط والغربة ، يا من تركتنا لسنوات عدة ..
السنون تمضي وتمتطي أعمارنا .. تمضي وأنت تسألني عن قريتنا ، أنتم هناك في البعيد تكتفون بأن ترسلوا لها الدولارات والريالات والدينارات .. هل صار المال سيداً ؟ هل صار معبوداً ؟
لن أتحدث عن نفوس الناس التي كانت بريئة .. كل شيء يتغير .. وسبحان الذي لا يتغير ..
صديقك ..
...
كان خطابه ملقى بالسؤال عن الطاولة ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

والورقة البيضاء مفرودة أمامي ..
والقلم بيدي لم أخط به حرفاً أو كلمة من الكلمات السابقة ..
ما جدوى أن أكتب إليه ذلك ؟
لا شيء .. لا شيء ..
قلتُ لنفسي : " لا شيء " ..
وأنا أنهض متجها لفراشي أستلقي عليه وأنام .

---

www.alkottob.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

هــدنة

تداعتْ الأصوات المبهمة لسمعه كأنها آتية من أغوار سحيقة ، اتضحت شيئاً فشيئاً ، أطبقتْ عليه وأقضَّتْ مضجعه ، استردَّ وعيه وأفاق من نومه .
تباعدتْ أجفانه وتحركتْ مقلتاه في محجريهما ، آلف المكان الذي يعرفه ، إنها حجرة نومه .. تأوه وتنهد من جوف الجوف ، آنستْ أذناه حفيف ثوبها وشبشبها الزاحف علي البلاط بقرقعات مكتومة بين الردهة والمطبخ .
صوت المذياع يبعث بموسيقى ليست هادئة بالمرَّة في هذا البكور .
لسعته برودة قاسية ونفذتْ لعظامه ، أدرك أن ساقه وجزء من مؤخرته بلا غطاء ، انزاح اللحاف مكوماً ، عرف علَّة الكوابيس التي تلازمه في نومه ، التفتْ أطراف البطانية ماركة النمر القافز .. رآه بفروه المخطط يعدو برشاقة خلف غزالة بريَّة ، ورأى قائمتيه الأماميتين تثبان وتتعلقان وتقفان في الفراغ ، بينما كانت أنيابه تضوي علي صوف البطانية ..
همس لنفسه :
" ليتني نمراً .. لاشك أنني هرَّة استعارتْ من النمر شواربه .. كيف أقنع الآخرين وأنا غير مقتنع بنفسي ؟ ممثل فاشل أنا .. "
كان باب الحجرة مفتوحاً بقصد . أعاد ترتيب أعضائه ، لملمها في وضع جانبي أعتاده ويريحه ، تمتم وهو يدثر بدنه باللحاف والبطانية مرَّة أخرى :
" إنها توقظني بطريقة ماكرة .. يا لها من هرَّة لئيمة .. تحاول أن تبدو كسيدة عصرية وتريدني " جنتل مان " .. لم تهزني بعنف كعادتها .. لم تلكزني بيدها .. تثير الجلبة في مناكب الشقة الضيقة .. وصوت المذياع يطرق طبلتي أذنيَّ .. وتسلل البرودة وسريانها في بدني .. كيف ومن أين يأتي النوم ؟ تعتقد أنني سأنهض نشيطاً .. وأمط ذراعيّ .. وأؤدي تمارين الصباح السويدي من واحد لتسعة .. ثم اتجه إليها " صباح الخير يا حبوبة " وأقبلها في شفتيها وهي منتشية وسعيدة وراضية .. "
سمع طشطشة البيض في سمن الطاسة ، ثني البطانية ثنيتين وصفع بها أذنه ، انزاحتْ الأصوات بعيداً كأنها آتية من جب سحيق .
" لن أحقق رغبتها .. لن أذهب للعمل اليوم .. ليست لدي رغبة في حشر نفسي في بطن الأوتوبيس .. وهناك أمسك بالقلم لأوقع في خانة الحضور .. وأجلس في حجرة مع سبعة آخرين .. لا يؤدي أحد منا عملاً محدداً .. نقضم الساندويتشات عندما نجوع .. ونثرثر بالفارغ من القول .. ولمَّا تقترب عقارب الساعة من الحادية عشرة تبدأ طقوس التزويغ الغريبة .. لن أذهب .. تريدني أن أفقد عقلي هذه المجنونة .. هذا يوم للهدنة .. نسميه بالمصلحة بيننا هدنة .. بين الحين والآخر هدنة .. كما يتهادن المحاربون .. نحن أيضاً نتهادن مع العمل .. بالأصح مع اللا عمل .. أيام متفرقة تأتي في موعدها تماماً .. لكنها لا تفهم .. تقول لي : أتريد أن تظل كالولية الخائبة بالشقة ؟ أقول لها هدنة .. لكن كلمة هدنة مرفوضة في قاموسها .. تعتقد أن الحياة معركة مستمرة .. البقاء فيها للأقوى .. "
بدتْ تلك الأشياء صوراً ضبابية متشابكة ومتداخلة ، تنساب في مخيلته ، ولا تني تتشكل في حلم مبتور في الوعي الباطن ، وانتظمتْ أنفاسه في غفوة خالها لحظة ..
والغطاء يسحب وينحسر عن جسده ، وتحاصره لسعة البرد وخشخشة الثوب والشبشب وصوت المذياع العالي ..
وتباعدتْ أجفانه علي يد أنثوية بضَّة تهزه بعنف وتلكزه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

العم عزب

دنا من رأسها بوجل ، علا بالمبخرة ، طوحها في دائرة ، تمتم متلفظاً بتعاويذ مبهمة ، تصاعد دخان البخور لأعلى في حلقات هشَّة ، علا وتلاشى ببطء مخلفاً في الفراغ عبقه النافذ ، بسمل وتلا :

" بسم الله الرحمن الرحيم .. قل أعوذ برب الفلق .. من شر ما خلق .. ومن شر غاسق إذا وقب .. ومن شر النفاثات في العقد .. ومن شر حاسد إذا حسد "

تصدق ، هوى بجوارها ، توسد أرض الحظيرة مسنداً ظهره للجدار ، حدق في عينيها العميقتين ، تحسس بطنها المنتفخ ، أدرك أنها ترنو إليه بحب ، تعي وهي البهيمة ما يعتمل في نفسه حزناً وألماً من أجلها ، مسَّد قرنيها الأسودين ، ثم مرر كفه علي جبهتها .

زامتْ الجاموسة ، أنت من فــرط الألم ..

الرياح تعوي بالخارج ، تقتحم كوخه ، تصطدم بحزم الحطب وعقد القش فوق السقف ، تتهاوى مهزومة ، وتتكسر في حناياه .

بنبرة يكسوها الحزن ، ارتعش صوت العم " عزب " :

" ألف سلامة عليكي يا غالية "

" يا قوي .. يا معين .. قومها بالسلامة "

قالت أم الخير زوجه العجوز بعد صمت ، نهضتْ وأقامت ظهرها . اهتزَّتْ اللمبة الصفيح السوداء بيدها المرتعشة ، تراقص فتيل الضوء الباهت ، ارتد علي الوجه الممصوص المغضن بأخاديد الأعوام الطوال التي هوتْ وانصرمتْ .

اهتز ثوبها الأسود . الظلال الطويلة ارتمت ممتدة علي الحوائط المتداعية للحظيرة ، تراقصتْ مع الضوء الباهت كالأشباح ، اهتزَّتْ أعواد القش المتدلية من السقف .

مرق خفاش أسود غطيس بلون الليل ، يطير سريعاً بزوايا حادة في فراغ الحظيرة ، يبحث عن منفذ يعرفه ، كلما دنا منه اصطدم بحافته ، يدرك خطأه فيعاود الكرَّة من جديد بإصرار لا ينفد .

بسطتْ أم الخير كمُّها الطويل علي عينيها العمشاوين تمسح دموعاً قبل تساقطها :

" نذر أم هاشم يا عزب .. نوفي بالنذر "

كان الهواء ما زال يقتحم الكوخ الطيني ، ينفذ من ثقوب وشواخص الباب الباهت ، الذي كان يهتز في إطاره المتداعي ، واهتز فتيل الضوء في اللمبة السوداء .

" عين شريرة يا أم الخير .. عين حمراء وجاءت في البهائم .. "

صمت قليلاً يفكر بالنذر ، ثم أردف :

" وإذا كان لنا عمر أكلم الشيخ في الصباح "

وهمهم عزب كأنما يحدث نفسه أو يحدث الجاموسة :

" الحمار مات وقلنا عليه ومنه العوض .. ما فات شهر وأنت كمان عيانة ساعة الولادة .. حكمتك يا رب .. أنت شايف ومطلع "

امتزجتْ رائحة البخور مع اختمار البول والروث ، نفذتْ في أنفه . مدَّ يده وجاس بالمذود ، قلبه بأطراف أنامله المرتعشة . ذبلت أعواد الحشائش الخضراء . لم تأكل الجاموسة . كانت أم الخير آنئذ تمسك جوالاً كبيراً مشقوق الظهر ، تفرده بكفيها علي ظهر البهيمة الراقدة بحملها ومرضها .

أنَّتْ الجاموسة ..

عوتْ الرياح بعنف ، وصفرتْ تعول بلا هوادة .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

مدَّ عزب قدميه النحيلتين أمامه حتى فوهة الفرن ، رقد بجوار الكوَّة التي تفصل حجرة الفرن عن الحظيرة ، راح يطل عليها بين الحين والحين ، سحب البشت الصوفي علي ساقيه ، طوى ذراعه موسداً رأسه ، حلَّ التعب ودبَّ في بدنه ، وكان يغفو علي حزن يعرف كنهه ، وتراقصتْ الذكريات كمرئيات مبتورة في مخيلته ، اهتزتْ أمام عينيه الغافيتين تحت سمع الرياح العاصفة ..

شريط أرضه بمحاذاة الطريق .. ذكر النخلة القابع بطول عمره جنب مدار الساقية أم قواديس .. يزهو بخصب لقاحه لإناث نخلات القرية .. الحمار يدس رأسه في مخلاته .. الجاموسة المغماة علي المدار تدور .. تسكب القواديس الماء وهي تعزف لحن احتكاك المفاصل .. ينساب الماء متداعياً في بطون القنوات .. أم الخير قادمة تحمل صرة الغداء علي رأسها .. فوقها شمس الصيف الكبيرة الحامية .. يحلو له أن يغني الآن موالاً للأرض وموالاً للصبر وموالاً لها :

" يا بنت يا بيضا .. زاد حبك عن عيون الغربال عين .. يا ليل يا عين "

والمياه تنساب تروي الشراقي .. تبلل جذور الذرة في هذا التقييل المستميت .. انبسطتْ الأوراق شريطية الأنصال .. هبَّتْ نسمات لطيفة .. فجأة أظلمت الدنيا .. لاحتْ له عين حمراء .. داهمته .. سقط الحمار أرضاً .. صاح :

" يا غضب الله " ..

العين تكبر شيئاً فشيئاً .. تهاجمه .. سقط ذكر النخلة .. قطعتْ الجاموسة قيودها من الساقية .. أجفلت بهوج البهائم تجري علي غير هدى وهي مغماة العينين .. كانت العين الحمراء تكبر وتكبر .. تتسع لتشمل كل الكون بلون الدم القاني .. صرخ :

" يا جابر " ..

شمله الخوف .. رفع كفَّيه وغمَّى وجهه وأغمض عينيه .. لكنه ما زال يراها .. العجز يقيده .. أغلال صلدة تكبله .. الجاموسة الشاردة اختفت عن ناظريه .. مدَّ يده نحو " أم الخير " يستغيث .. تحشرج الصوت في جوفه ..

أفاق مهموماً علي يد " أم الخير " تهزُّه مع خيوط الفجر الفضية ، دخل حثيثاً عالم اليقظة ، وتناهى لسمعه صوت الرياح بالخارج ، رفع رأسه وأطل من كوَّة الحظيرة .

الجاموسة تئن وتزوم ..

الرياح خلف الباب .

* * *

الطقس بارد في الجامع ، لكن الماء دافئ ، وقطرات الندى تبلل الحوائط وأعواد القش ووجه الحصير المبسوط ، شبورة الضباب الهشة تنزل برفق ، كان يتوضأ ..

خال " أم الخير " جالسة القرفصاء في التو تحت فخذي الجاموسة .. تتحسس الضرع الوردي .. تسند المترد علي فخذيها .. تبلل كفيها بترياقها ، تقبض علي الحلمات .. تعصرها بحنو .. تحن الجاموسة باللبن الدافئ ..

تضع المترد أمامه ، يغمس لقيماته الجافة فيه .. يرفعه إلي فمه .. يتبدد بخاره علي وجهه العجوز .. وفجأة سقط المترد من يديه .. انسكب اللبن ..

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم .. بسمل ودخل في الوضوء .

اعتدل بالصف خلف الشيخ " علوان " . أنهى صلاته رافعاً كفَّيه نحو السقف بالدعاء ، مدَّ كفَّه في كف الشيخ :

" حـــرماً "

" جمعاً إن شاء الله يا عزب "

مال " عزب " نحوه فأعطاه الشيخ أذنه ، همس له بالحال في داره ، أشار له من بعيد لنذره عليه للسيدة زينب . ربت الشيخ علي كتفه يطمئنه :

" موعدنا بعد صلاة المغرب يا عزب .. والجود بالموجود"

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

ورفع سبابته نحو سقف الجامع :
" الجابر والمعين هو الله "
* * *
في المساء أقبل الشيخ ومريدوه ، في صحن الدار الضيق جلسوا ، دارتْ بينهم أطباق الفول النابت وأرغفة الخبز الطرية .. نذر السيدة .
"علي بركة أم هاشم " .. كانت أم الخير تقول .
بسملوا وأكلوا .
ورفع الشيخ كفَّه يدعو بالعمار لهذه الدار وصاحبها . ورفعوا أكفَّهم خلفه ، ودعوا بالخير والبركة .
دارتْ أكواب الشاي الصغيرة دورتين ، بعد أن قرأوا الفاتحة للشيخ الشاذلي شيخ الشاي .
صفق الشيخ بكفيه ، صاح بصوت جهير :
" الذكر يا ذكِّيرة .. الذكر يا ذكِّيرة .. ألا بذكر الله تطمئن القلوب "
نهض الرجال وتجاوروا ، تحلقوا حلقة يتوسطها الشيخ . مرر أحدهم صفحة البندير الجلدية علي لهب الموقد الفخاري . اشتد جلد البندير الأملس تحت نقرات أصابعه . هب الرجال ، مالوا يميناً ، مالوا يساراً كأشجار تهزها الرياح ..
انتظمن الإيقاع مع كفَّي الشيخ .. الله .. الله .. بين الشفاه .. من نياط القلوب .. سرى الدفء في الأبدان المهتزة .. أسرع الإيقاع .. اهتز الرجال ومالوا .. انضم آخرون كانوا بالشارع .. جذبهم إيقاع البنادير وهتاف الذاكرين .. اتسعت الحلقة وامتدتْ خارج الدار .. لمعتْ جباه تحت بريق الضوء الخافت .. لفظ الجلالة تحتضنه الشفاه برجاء .. يخرج مبحوحاً من جوف الصدر .. تتسع الحلقة وتمتد ..
قبل أن تلهث الأجساد ، صاح الشيخ :
" الله حي .. الله حي "
إيذانا بانتهاء الطبقة الأولى من الذكر .
ومال الرجال في طبقة أخرى .. وطبقة .. وطبقة ..
تعب الرجال ، انخفضتْ أصواتهم ..
دقَّ حامل البندير بقوَّة عليه وصاح :
" روِّح .. روِّح "
فهم الشيخ مقصده ، فتغنى مترنماً :
" يا رب سامح لنا كلنا
من غاب منا ومن قد حضر
وبالوالدين .. كن رحيماً
وألطف بنا في القضاء والقدر .. "
عزب يهتز وسط الرجال ، يميل ، يعلو صوته بقوة وينخفض ، يغمض عينيه ، تنفر عروق رقبته وتحمر صفحة وجهه وتنتفخ ، تتداخل الكلمات وتتبعثر علي شفتيه ..
البندير يدق سريعاً ..
رأى العين الحمراء ، تكبر ، تتسع ، تهاجمه ..
البندير يدق سريعاً ..
سمع أنين الجاموسة ، صوتها يتلاشى رويداً رويداً ، ينطفئ البريق في عينيها ..
البندير يدق سريعاً ..
أراد الصراخ ، أظلمتْ الدنيا في عينيه ، خارتْ قواه ، تلاشتْ ، سقط وفي أذنيه صوت الشيخ ما زال يصيح :
" الله حي .. المدد .. الله حي .. المدد "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

أفاق " عزب " علي أياد كثيرة تهزُّه ، ورأى عيون قلقة تحملق فيه .. الرجال .. الشيخ " علوان " ..
" مبروك يا عزب "
أسند كفَّه علي كتف الشيخ . ومضوا به صوب الحظيرة ..
كانت الجاموسة راقدة ، أمامها " أم الخير " ، وبين يديها الوليد الصغير بخطمه الأحمر ، يبر بش بعينيه ، ويرنو لدنياه الجديدة ومصيره المحتوم .

---

www.alkottob.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

الزلزال

(1)

كنت أخاف الزلزال الذي سيحدث ، وأخاف الموت .
أخاف أن تتحطم بيوتنا الطينية التي نأوي إليها ..
لكنني كنت أعرف أنني سأهرب مع الآخرين ولا انتظره .
هناك ، علي الهضبة الرملية المرتفعة البعيدة ، أراقب السماء الصافية القمرية المفتوحة العالية ، أتحسس الأرض الحبلى بكفّي ، أستلقي في نسيم الليل ، أعد النجوم البعيدة والقريبة ، هناك عند خط التبَّانة كثيفة العدد .
أتابع النجمات السبع ، الأخوات ، " بنات نعش " ، يحملن جثمان أبيهن أربع ، والثلاث الأخريات يولون في الخلف ، يبكين ، يجبن وجه السماء الشاسعة طوال الليل ، يبحثن عن مثواه الأخير ، ولا يجدنه أبداً ! ..
حتى تطل نجمة البدرية وتلمع ، تتوهج في ركن السماء البعيد ، فيذبن في وهجها .
ويلفنا الضباب الهش الخفيف .
تقول أختي التي تكبرني بعام :
" سينضج البلح علي النخلات "
" نعم .. ويتساقط الرطب الأسمر "
" أنا أحب البلح الأحمر النيروز "
" وأنا أحب الرطب النايح "
أمشي وراءها وجل القلب . خيوط الضوء تنبثق من جوف الليل المتقهقر المهزوم ، تشب الديكة برقابها من الزرائب التي خلف الدور وتصيح ، زرائب مختمرة الروائح ، تشغي بطيور منزلية وحيوانات مستأنسة .
عندما يمضي أبي يتلو الآيات البينات بصوت مسموع .
يرفع أذان الفجر، يرن في مسمعي ، ويثير الشجن .
أتحسس الأرض الحبلى بكفّي ، رطبة ومندَّاة . وطعم البلحة في فمي مثل منقوع السكَّر .
يبزغ الولد الأسمر " مسعود " ، ممصوص الجسد كعود خيزران ، ضئيل الوجه ، يتسلق النخلات ، يملأ صدره المفتوح فوق حزامه التيل ، يضحك منا ويهرب ، يقذفنا بالبلحات ، يهرب ولا أحد يعرف .
لم تلد الأرض الحبلى ، الزلزال الذي أخافه ، والذي تنبأ به الشيخ " خلف " لم يحدث . الثور المستريح يحمل الأرض علي قرنه ، لن ينقلها إلي قرنه الآخر . آه لو حدث ، لحزنت حزناً شديداً علي بيتنا المدكوك بالأرض بجوار الجرن ، أفتح عيني عليه كل حين تحت النخلات التي تبدو كأذرع ملهوفة تتجه للرب تسبحه .
انصرمتْ الليلة ، هوتْ بثوانيها البطيئة الوجلة ، أخالها كساعة شمسية مؤشرها سفا حشيشة البشروش المرشوق بالثرى الرطب في سرَّة الأرض الحبلى .

(2)

غمر الضوء الكون . الفتاة الأعرابية " سليمة " جاءت خلف أغنامها تحت النخلات ، ثوبها الأسود مزركش بخيوط ملونة وجميلة ، دقيقة التطريز في مثلثات ومربعات ودوائر منتظمة . نطاقها حول الجيد بلون الورد الفاتح . غطاء رأسها تحت القنعة السوداء يلف وجهها البرونزي المستدير ، عيناها الواسعتان مكحلتان . تتراص العملات الفضية للعصور المنصرمة حول وجهها ، مشبوكة ولامعة ، ولما تهتز تحدث صليلاً خافتاً فوق ضفائر شعرها الكثيرة والمجدولة بعناية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

أساومها علي عملاتها الفضية بقروشي البيضاء المثقوبة ، التي تحمل اسم السلطان حسين كامل ، أو المستديرة البيضاء ، أو الأخرى البنية متعرجة الحافة ، التي تحمل صورة الملك فاروق الأول ملك مصر ، ويبدو وجهه مكتنز اللحم ، متورداً ، ويستوي علي رأسه الطربوش الدموي ..
أعرف أنه الملك .. ملك البلاد ، أعرف أن جلالته يعيش بالقصر العالي في مصر التي هي أم الدنيا ، لكنني لم أكن أعرف إلاَّ عندما حدثني أبي عنها وقال :
" إنها جريحة يا ولدي "
وقال ذات مرَّة عنه :
" الملك رجل سمين .. كثيراً ما يركب اليخت الملكي .. ويمخر عباب المتوسط أو المحيط بأمواجه الزرقاء "
وقال في مرة أخرى :
" إنه كثيراً ما ينزل إلي الموانئ .. يعشق الخمر والميسر والنساء من كل الألوان "
ترفض " سليمة " الصفقة ، لا تقبل قروشي الملكية بديلاً عن عملاتها القديمة .
أغضب منها ، أمتطي الخروف ذا الفرو الأبيض ، يجري بي ويقفز في الفراغ ، فأسقط .
تضحك هي مني ، تهوشني بعصاها الطويلة ولا تغضب ، أحس أنوثتها لما تجري خلفي ، يصطدم رأسي بثدييها الوافرتين ، اللتين ترتميان بلا سوتيان في هوة الثوب .. تفران وتعودان .. ترتطمان بحزامها الأحمر المشدود حول الجيد ..
" تقبليني زوجاً يا سليمة ؟ "
تضحك ، تقهقه ، ترفض مرة أخرى :
" لا .. أنت فلاَّح "
لكنها لا تغضب إلاَّ عندما يأتي " مسعود " ، ذلك الولد الشيطان ممصوص الجسد ، يصير بين ماعزها وخرافها شريراً وشقياً . ولا تفلح حيلها الساذجة للنيل منه .

(3)

أمضي مع أختي إلي الكتَّاب ، أحفظ جزء عمَّ من القرآن ، أهز رأسي وأنا أتلو الآيات البينات ، كتبها سيدنا الشيخ " خلف " بريشته الطويلة ذات السن المعدني ، يغمسه في المداد الأزرق ويكتب الحروف ، فتبدو بالخط العربي الثلث جميلة ، تتألق علي الألواح المعدنية اللامعة .
يقول " مسعود " الذي لا يهز رأسه الآن معي ، والذي كان شارداً :
" أين الزلزال يا سيدنا الشيخ ؟ .. نمنا بالأمس في العراء ! "
يصمت الشيخ " خلف " ولا يجيب ، ينظر نحوي ، يقول :
" اقرأ سورة الزلزلة يا محمد "
(إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها)
أتلو ..
" اقرأ سورة الزلزلة يا مسعود "
يقرأ ، يتلعثم ، يخطئ .
يضربه الشيخ بالمقرعة علي بطني قدميه الحافيتين . يصرخ " مسعود " ويبكي .. وعندما يضحك أخيراً أرى في مقلتيه الدموع . وعندما أعطيه حبة الكراملة المستديرة الحمراء ، يضمها في قبضته ويخفيها خلف ظهره ، ثم يمد يده الأخرى لي .
ينصرف عنا الشيخ مفكراً بأمر الزلزال ، يلف سيجارته بورقة بافره استانبولي رقيقة ، يبسطها بأطراف أنامله من علبة الدخان الصفيح ، علي غطائها تبدو الأهرامات الثلاثة ، والصحراء الشاسعة ، وأعرابي يقود ناقته علي حافة نهر النيل ، الذي تنبت علي شاطئيه الأذرع الملهوفة للسماء ، تحمل السباطات التي تتدلَّى ثقيلة الحمل ببلح أحمر سايح ونايح ..
ويهمس " مسعود " :
" سيبشرنا سيدنا الشيخ في المرَّة القادمة بيوم القيامة "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

وأقول له :
" عندئذ لن تنجو يا مسعود .. سوف تسقط عن السراط وتغرق في لهيب جهنم "
(4)
أقبل الليل ، لا أدري إن كانت الأرض ما زالت حبلى بالزلزال أم لا .
لكننا كنا سويَّاً بقلوب خاوية وصغيرة ، كان علينا أن نلهو بوجل .
لعبنا الاستغماية .. اتسعتْ الساحة بنا ونحن نختبئ خلف النخلات .
لمَّا لعبنا الثعلب فات فات .. ضاقتْ الساحة علينا .
وعندما لعبنا نطة الإنجليز ارتفع صراخنا .. ولا أدري لماذا الإنجليز هذه المرَّة ؟ .
وتذكرتُ أنه قال لي :
" إنهم جرح غائر في بدن مصر "
وتذكرت أنه قال أيضاً :
" بشراتهم بيضاء كالشمع .. ويرطنون بلغة لن تفهمها إلاَّ عندما تترك الكتَّاب وتذهب للمدرسة البعيدة "
لكننا كنا نصيح سوياً هذه المرَّة :
" يا عزيز يا عزيز .. كبَّة تاخذ الإنجليز "
مللنا هذه الألعاب ، نريد لعبة جديدة .. لعبة لم نلعبها من قبل .
يرتفع صياحنا في هدوء الليل الساكن الذي يمضي .
" مللنا هذه الألعاب يا مسعود .. لعبة جديدة من ألعابك العجيبة يا مسعود "
ويمضي " مسعود " بعيداً عنا قليلاً ، يُعمل عقله في التفكير من أجلنا ، وننتظره في ليل تجاوز منتصفه تحت قمر مستدير مرشوق في كبد السماء ، وفوق أرض رملية منبسطة تعكس الضوء الباهت وتبدو خالية ونظيفة .
أرنو بعيداً إلي أشجار النخيل العالية وأشجار العبل الكثيفة علي الأرض المزروعة بالترمس والشعير ، البيوت المدكوكة بالأرض الصامتة الآن ، ما زالت تحلم بالزلزال كالخاطرة ، لم تقفل أبوابها العتيقة بعد بتلك المزاليج الخشبية التي تسقط في تجاويف محكمة الصنع ..
قلبي الطفلي الصغير يرفرف مهيض الجناح ، مع طيور العنز الكبيرة التي تشق الضوء الفضي المعتم فوقي ، وتجوب سماء مصر العالية .. لا أراها بوضوح وأنا أصيخ السمع لأصواتها الرخيمة ، تمضي في جماعات في سفرها الطويل ، تثير في مهجتي الوحشة والغربة والحنين إلي هذه الأرض الحبلى التي تبدو في عيني مجهولة ..
وطال انتظار " مسعود " .
وأقبل أخيراً يهرول نحونا . تقاطرنا حوله ، وقد خلناه يُخرج من جعبته عشرات الألعاب الجديدة والمثيرة ، سألناه بلهفة :
" هه .. ماذا سنلعب هذه المرَّة يا مسعود ؟ "
تفحص وجوهنا التي تحدق فيه وقال :
" نلعب نطة الإنجليز "
صحنا بغضب في وجهه وتبعثرنا .
فراح يناديا صائحاً :
" بلاش نطة الإنجليز .. نلعب طق الفِلس "
فتجمعنا مرَّة أخرى .
(5)
حول المذياع المركون علي الرف تجمعوا ، ارتفع صوت المذياع ، اشرأبت الأعناق ، أصاخوا السمع ، كأنها لحظة ميلاد يبشرهم بها الشيخ . ركضت الشمس فوق ذوائب النخيل ،عندما هلل الشيخ " خلف " باسطاً كفيه في فراغ الكون ، يصيح كأنما يبرئ نفسه من زلزال بزلزال آخر ، ورجع الصدى لصوته يتردد بجوانب الدور :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

" لقد وقع الزلزال .. لقد وقع الزلزال .. الزلزال "
وساءلتُ نفسي : أي زلزال يقصد ؟
كأنه سمعني عندما قال :
" لقد ترك الجيش السكنات يا ولدي معلنا الثورة "
وكان لابد أن أعرف من أبي بعد ذلك :
" أعلنت الجمهورية يا ولدي "
" ركب الملك اليخت ومضى في البحر "
وأكد لي :
" لن يعود .. لن يعود "
وكان يشير بسبابته لعين الشمس .

---

www.alkottob.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

ولمَّا أدركهم الخوف

أيها الزمن الذي انصرم وفات .
وكانت فيك الوسايا الكثيرة .
في الوسيَّة كان القصر العالي ، وبالقرب حوافه كانت أكواخ الطين تتلاحم وتتزاحم .
في القصر يوجد الرجل الكبير .. بيه أو باشا ، وفي الأكواخ الطين يوجد الفلاَّحون .
بعض القصور كانت أطماعها من يحموم ، كنار متقدة في محابس شفافة وملونة .
أمَّا الخوف ، آه من الخوف ! ، فقد أحال بعض الأكواخ لأشباح رمادية ، لا يصدر عنها سوى الهمهمة الصماء .
يا أيتها القرية .. قريتي ، لقد كنت في الأصل وسيَّة .
*

قبل الغروب

وقد كنت معهم ، كفّي الصغير ينام في راحة يد أبي ..
لمَّا خلفوا أكواخنا الطينية وراء ظهورهم المحدودبة قليلاً ، كانت الدجاجات ـ دجاجنا ـ تفر أمام أقدامنا العابثة بتراب الأرض ولا تكف عن القأقأة ، والبط ـ بطنا ـ لا يكف عن الزبيط العالي ..
كان الغسق يحل بدفء صامت . وترددوا بوجل وهم يقتربون من القصر العالي ، ثقلتْ المداسات في أرجلهم النحيفة الخشنة ، أثارتْ البلغ البالية كالأخفاف المخصوفة بأقدامهم غباراً ، وكانت أفئدتهم ترتج ، ترتجف ، بينما كانت أحداقهم في المحاجر الغائرة تتقلب مجيلة البصر صوب البناء الكبير ، الغارق في خضرة أشجار البوانسيانا دموية الأزهار ، وأشجار ذقن الباشا ضخمة الجذوع ، وكانت الأفرع والأعطاف تطل من فوق السور ، وكانت الزرازير وعصافير النيل الدورية والقبرات وشتى أنواع الطيور الأخرى ، تزرزر وتزقزق وتعقعق وتصدح في سيمفونية ما قبل الغروب .
ولمَّا اقتربوا أكثر ، بانت في أعينهم العمشاء كلاب القصر والحشم والخدم والحرس وعمال الأبواب ذات الطلاء الأصفر ، تقهقر أحدهم ـ عمي " عليوه " ـ وقال :
" بإذنكم أفك حصرة مياه والحق بكم "
صاح الكبير ـ أبي الشيخ " عبد الصمد " ـ وزمجر ، وهصر كفّي الصغيرة النائمة في راحة يده ، وحدج العم بنظرة مختلسة ، وضغط الكلمات وهو يهمس :
" وده وقته يا عليوه .. البيه في الترسينا وشايفنا "
كنت آنئذ أرنو بدهشة لهذا العالم الغريب الذي أراه أمامي ، وأهابه من علي البعد ، وألجه لأول مرَّة ، وأخاله كسديم أسطوري ملون .. لكنني أحسستُ أننا ـ أنا وأبي وأعمامي ـ ننزلق للداخل كلقمة سائغة في حلقوم شره ولزج .
بدتُ التجربة غريبة وفريدة في وعيي الطفلي .
صحيح أنهم قبل المجيء ، كانوا يتقولون ويتلفظون ويهمسون ، عن الأرض ، عن صاحب القصر الذي يرغب شرائها رغم أنوفهم .. وأشياء أخرى كثيرة لم تعها ذاكرتي في ذلك الحين الذي قلت أنه فات ، مثلما لم تعي ذاكرتي فكرة اصطحابي معهم في هذه المهمة الثقيلة .
وزمجر العمان الآخران ، وارتابا في رغبة عمي " عليوه " التي يتحجج بها بغرض التزويغ ، وقال أحدهم ـ العم " رجب " ـ بضيق :
" اعملها علي روحك يا عليوه .. يعني حبكت دلوقت "
ولمَّا دلفنا من الباب الكبير ، تعثر الأعمام بعضهم ببعض تحت النبات المتسلق الأرجيريا عريض الأوراق دائم الخضرة . وحاولتْ ـ دون وعي مني ـ أن أحرر كفّي الصغيرة من كفّه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

الكبيرة ، كي أرى وأتطلع براحة ، فلم تفلح محاولتي ، وتسرب الحزن لنفسي واحتدمتُ غضباً عندما رأيتُ وجه أبي ووجوه أعمامي تنضح بمزيج من العرق والغضب والوجل .

*

عند الغروب

تسلل الأمان فاراً من نفوسهم أمامه . " عبد السميع بيه " صامت ، يمسد شاربيه الأصهبين بأصابعه ، ويتمطق بشفتيه ، ويبتسم بجفاء تحت أنفه المعقوف ، ويشملنا جميعاً بنظرة ، لابد أنه يخالنا ككتلة مشوهة في عينيه الباردتين الرماديتين بلا سياج ..

ولمحت الكلب ـ كلبه ـ بجرمه الضخم ، يلعق اللبن الطافح من دلو ملون . وفي الركن .. كان العبد الطويل ـ طويل بدون خيال ـ يقف منتبهاً ..

وأحسستُ أن جسد البيه يتعملق وهم يختلسون النظر إليه ، ويحدجونه من تحت لتحت ..

لا مراء أن الأعمام آنئذ كانوا يخاطبون دواخلهم :

" لماذا لا تتكلم يا شيخ عبد الصمد ؟ ..

جئت بطفلك في يدك كي تحنن قلب البيه .. تقول له إنها أرضنا التي ورثناها عن سابع جد .. أرضنا التي زرعناها عبر السنين الطوال .. صحيح إنها صارت محاطة بأرضك الواسعة حتى حدود الشوف .. ودائمة الاتساع إلي ما وراء حدود الشوف .. بسم الله ما شاء الله نحن لا نحسدك .. لكن لماذا تصر علي شراء أرضنا رغم أنوفنا .. رضينا أم لم نرض .. أنت تعرف أننا لا نملك غيرها .. هي تاريخنا المدفون فيها بالعرق والشقاء .. لن نرضى بغيرها بديلاً .. أنت تعرف أن الأرض هي العرض ..

لماذا لا تتكلم يا شيخ عبد الصمد ؟ .. أتجبن وأنت كبيرنا ؟ .. ألست أنت القائل نرجوه ومعانا الولد يمكن فيه رجاء .. "

ولمَّا تعثرت الكلمات علي شفاههم الجافة ، وأبت التدحرج لمسامع أبي الشيخ " عبد الصمد " و" عبد السميع بيه " ، صار وقوفهم أمامه بلا معنى ، عرفوا أن لسانه القبيح لن يرحم توترهم الحاد المترقب ، وقد خمن سبب مجيئهم ، لن يتوانى عن طردهم في التو واللحظة ، وقد ضاق بجبنهم ..

فسأل أبي متخابثاً :

" فيه إيه يا عبد الصمد ؟ .. اتكلم .. ولا اتخرست ؟ "

وفوجئ أبي ، وازدادت قبضته علي كفّي الصغيرة . فتألمت ، وبغريزة الخوف بكيت . وانتبه أبي الشيخ " عبد الصمد " لبكائي ، وأنه قد نسي أمر وجودي في تلك اللحظة الهاربة من عمره ، فحرر كفّي من كفه ، وربت علي ظهري يطيب خاطري ، ولملم طوق جلبابي مفتوح الصدر ، وهمهم بكلام كثير وهو ينقل بصره بيني وبين البيه ، لم أتبين منه سوى :

" أطال الله عمر سعادتك .. بارك الله فيك .. موضوع أرضنا وزرعنا .. وسع الله عليك كمان وكمان .. إذا كان لابد من بيع وشراء .. من أجل خاطر الولد تعجل لنا بالثمن .. علشان نشوف لنا أرض غيرها نشتريها "

وكان يدفعني أمامه ..

وبُهت الأعمام ..

وتمنيت لحظتها أن تنشق الأرض ، أي أرض ، وتبلعني ، وهو يواصل الدعاء له :

" بارك الله في أولادك يا بيه "

كنت قد كورتُ قبضتي الصغيرة ، وكففتُ عن البكاء ، رحتُ أدعك أجفاني المبتلة ، وأحدج بخوف الكلب الذي توقف عن اللعق ، وراح يرنو صوبي بدهشة .

انفرجتْ أسارير البيه ، مرَّ براحته السمينة علي جبينه المحزوز بتلك الغضون الدقيقة ، ودون أن يرف له جفن قال :

" خلاص يا عبد الصمد .. أبعث لكم ناظر العزبة باكر .. وبعده تسيبوا الأرض "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

*

بعد الغروب

ولمَّا دلفوا خروجاً من الباب الكبير تحت متسلق الأرجيريا ، كانوا منكسي الرؤوس ، كأذلاء ورزايا اختلط عليهم القول ..

كانت غبشة الغروب قد دثرت بدن الكون ، وبانت نجمة وحيدة وصغيرة مستوحشة في السماء العالية التي لا تطال ، تنتظر زحف الظلام بلا جلبة .

وبينما كانوا يتحاشون النظر لبعضهم البعض ، انتبهت لأحدهم ـ العم " عليوه " ـ يزفر مثل جواد مكبوح الجماح ، ويهرول صوب الأرض ، مشمراً أذيال أسماله البالية ، ومدلياً سرواله الطويل ، ومقرفصاً . ولمَّا كنت قد تحررت من قيود الأسر في البناء الكبير ، ضحكتُ بعفوية ، وكانت ضحكتي مزدرية وساخرة ، أدركتُ أنها كانت كعود ثقاب حككته بأرنبة أنف أبي الشيخ " عبد الصمد " فاشتعل ، فأفلت كفّي الصغيرة من كفّه التي طوحها لفوق عالياً ، وهبط بها هاوياً علي صدغي .

رنَّتْ الصفعة في الفراغ ..

وارتج وميض النجمة الوحيدة المستوحشة في عيني ، تبعثرتْ لآلاف النجوم التي انبثقت من بطن السماء العالية التي لا تطال ، وكانت ظلمة الليل تهبط .

الفهـرس

ولم أتحرك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com

سـونة
ظلال الطيف
الحصاوي
البداية
المياه الضحلة
عيون الدهشة والحيرة
حكايات متفرقة :
1 - زهرة البانسيه
2 - أوتو بيس
3 - رسالة
4 - هدنة
العم عـزب
الزلزال
ولمَّا أدركهم الخوف

www.alkottob.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.alkottob.com